أديان
ما قبل التاريخ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة

1427 هـ ـ 2006 م

al-maktabeh .com

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 9953-463-22-0

http://al-maktabeh.com

اندريه لوروا - غوران

أديان ما قبل التاريخ

ترجمة
د. سعاد حرب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة :

Les religions de la préhistoire

Par

André Leroi-Gourhan

© Presses Universitaires de France.

المقدمة

أن نتعرض لمسألة دين ما قبل التاريخ دون أن ننبه القارىء في البدء إلى أنه يتورط في ضباب كثيف ، وطريق وعرة محفوفة بالمشقات معناه أننا نظلمه . فما ـ قبل ـ التاريخ هو لفظ مبهم يدل بمجمله على كل ما انقضى منذ أول كائن وقف على قدميه حتى اللحظة التي أخذت الكتابة فيها تلقي بصيصاً مبهماً على تفكير الإنسان ، وهذا أمر لم تصل اليه آخر القبائل الهندية في غابات الأمازون إلا في القرن XX . وليس ما يبرر الكلام عن دين ما قبل التاريخ بأقل مما يبرر الكلام عن ال ـ دين التاريخي . ولكي نتخيل ظرف عالم قبل التاريخ ، علينا أن نتصور كائناً مفكراً ، وصل إلينا من نسق كوني آخر (يجهل ان الانسان متدين) ونضعه أمام كأس غير مزخرفة وقدح شمبانيا وأمام سكين لحام وسكين كاهن . فما هي الوسيلة التي يملكها ليعيد تشكيل ، ولو بغموض ، مفهوم القربان ؟ كما أننا لسنا بهذا المستوى بالنسبة الى أقدم أزمان ما قبل التاريخ . ويتدخل الفن في ما ـ قبل ـ تاريخ أحدث ويقدم لنا عناصر نشاط نفساني محتواه ديني بالتأكيد . وتبقى المقارنة قائمة لأنها تسمح بإعطاء المقاس الحقيقي لإمكانياتنا . لنفترض أن الكائن المفكر نفسه ، ولكنه دون أن يملك امكانية التواصل معنا ، يقوم بدراسة الديانة الأوروبية من خلال زيارته للكنائس . فسيرى عندها نعاجاً ، وحماراً وثوراً وعدة أشخاص مشوهين ، مجلودين ومجروحين وممددين في أضرحة ؛ فما هي

الصورة التي سيكونها عن الفكر المسيحي ؟ وكيف سيعبر من سطحية الصور المؤسفة الى عمق المفاهيم الديني؟ وليست لاسكو Lascaux [1] بالنسبة لنا شيئاً آخر. كيف سيقيم الزائر الكوكبي الفرق بين الحمل المسيحي المطعون بالسيف ، والبيسون المضروب بالرمح ؛ كما انه يكاد يكون من المستحيل أن نفكر بإنسان ما قبل التاريخ دون إعطاء أي حكم تقييمي ودون أن نجعله وريثاً من بعد وفاته لفكرنا في القرن العشرين . فما قبل التاريخ هو تمثال ـ جبار ـ ذو ـ رأس ـ من ـ الصلصال ، يزداد هشاشةً كلما ارتفعنا من الأرض نحو الدماغ . تتماسك قدماه ، وهي صنع شهود جيولوجية ، نباتية أو حيوانية ، بما فيه الكفاية ؛ وتتفتت يداه أكثر ، لأن دراسة تقنيات ما قبل التاريخ تتسم بهالة تخمينية . أما الرأس ، وللأسف ، فإنه ينفجر عند أقل صدمة ، وقد اكتفي في الغالب باستبدال فكر الجبار المقطوع الرأس بفكر عالم ما قبل التاريخ . بحيث أن رجل ما قبل التاريخ يعبر ، من خلال المؤلفات ، شخصيته الدينية ، فيكون تارة ساحراً دموياً أو ورعاً يجمع جماجم أسلافه، وتارة راقصاً شهوانياً أو فيلسوفاً متنوراً ، تبعاً للمؤلفين ؛ وعلى سلوكه أن لا يُدرس تبعاً للوقائع التي سيُرى فيما بعد أنها ضئيلة جداً ولكن من خلال سير علماء ما قبل التاريخ .

لم يترك لنا رجل ما قبل ـ التاريخ الا رسائل مبتورة ، لقد استطاع أن يضع حصاة ما في نهاية مطاف طقسي طويل يكون قد قدم فيه كبد بيسون مشوي على طبق لحاء مدهون بالجأب . لقد اختفت الحركات والكلام

---

(1) Lascaux . لاسكو : مغارة الدوردوني Dordogne اكتشفها كلب عام 1940 ، وكانت موضوع اكتشافات تاون Thaon وغلوري . تعتبر من أغنى مغارات أوروبا بفن ما قبل التاريخ ، والباقي بأفضل حالاته ، كانت أروقتها ، من دون شك ، مسرحاً لطقوس دينية ومسرحية (Robert) .

والكبد والطبق ؛ أما الحصاة فإننا لن نميزها ، إلا بمعجزة ، عن الحصى الأخرى المحيطة بها . ويجب أن نضيف أنه من السهل دراسة الشواهد المتسلسلة تاريخياً بأبحاث دقيقة ولكن سريعة : إذ يكفي أن يتم بدقة تجميع العينات المعدنية ، وكميات قليلة من التراب للبحث عن الصواح المتحجر ، وبقايا الحيوان ، حتى الأدوات التي تعالج باعتبارها « متحجرات موَجِهة » بسيطة . وعلى العكس ، يتطلب جمع كل الدلائل الممكنة للسلوك التقني وللتفكير ، طرق تنقيب منهكة بدقتها . عندما يعلم القارىء أنه لا يمكن عرض أكثر من مخطط واحد ومفصل لعملية دفن رجل من عصر النياندرتال Néanderthal ، مع أنّ هناك أكثر من عشرين أكيدة أو أكثر من محتملة ، يكون بمقدوره أن يقيس الفرق بين ما اكتسبه علم أحداث ما قبل التاريخ ، باختصار ولكن بصلابة ، وبين المقتطفات المتناثرة المجمعة حول فكر الإنسان المتحجر . وبالكاد تم إدراك أهمية البحث عن مواد ، لأنه من الأسهل في الغالب أن يستبدل الفكر بالفكر من أن يسترجع منعطفات الوقائع الطويلة .

يقوم أكثر التأويل طبيعية والأكثر علمية بالظاهر من خلال المقارنة مع الواقع . فيذكر هذا الغرض بغرض عند الاسكيمو ، وذاك الأثر الذي يفترض أنه لطقس يعرفه الهنود ، وتلك العادة معروفة عند البوشمان[1] والأقزام . كل هذا يعطي بعض القوام لإنسان ما قبل التاريخ . يمكن القبول ، أنه في القرن XIX كان من الضرورة العلمية بمكان أن يُبرهن بكل الوسائل الممكنة آنذاك أن إنسان ما قبل التاريخ كان انساناً مفكراً ، ولكن أن نبرهن اليوم بواسطة رجال « متوحشين » أن انسان ما قبل التاريخ كان

(1) البوشمان : شعب افريقي رُحَل يعيش في صحراء الكالاهاري .

إنسانياً ، وانه بدون شك « بدائي » أيضاً ، لم يعد له إلا قيمة تحصيل الحاصل .

بشكل انه يبدو من الحتمي أن يقام بمجرد جردة بما يُعرف وبما قدمه الاستراليون والفيجيون . وأن يفتق المعطف المرقع من عبادات الفكوك، وربط الأرواح ، والأسلاف الملقحين ، والتعاويذ السحرية ، ورقصات المسارات والطوطمية ، ليُرى ، وقد سقط المعطف ، إذا بقي ثمة رجل مفكر وحي أو بقيت فقط عظام ميت متناثرة . وأخطر لوم يمكن أن يوجه الى مقارنة مختصرة هو أنها تشل المخيلة العلمية ، ليست تلك التي تبحث عن شرح كل شيء بالمماثلة ، بل التي تبتكر وسائل توضيح ومراقبة الوقائع .

تقع بداية الأزمنة الانسانية في حوالي حدود العصر الثلثي ، منذ عدة ملايين من السنين . وكان للكائنات العامودية الأولى دماغ صغير جداً ، وصناعة محدودة تقتصر على أداة واحدة ذات طرف حاد ولا يعرف شيئاً على الإطلاق عن نشاطهم الذهني ، وبالأرجح ، عن نشاطهم الديني . ومنذ حوالي السنة 500000 وجدت كائنات أكثر تطوراً ، تسمّى فصيلة الانسانيات القديمة (إنسان جاوة ، إنسان بكين والاتلنتروب) وكانوا يملكون أدوات متعددة الأشكال . ومع أنه لم يعرف أي شيء عن حياتهم الذهنية ، إلا أنه يفترض أنها قد استثمرت (عبادة الجماجم لدى إنسان الصين) . وأقرب من ذلك ، كان يعيش في حوالي السنة 100000 الباليونتروب (الانسان القديم) وبالأخص رجل النياندرتال ، والمعروف بشكل أفضل: فهو أول من قام بعمليات الدفن المعروفة حتى الآن . وأخيراً ، حوالي 30000 على الأكثر ، (صورة 6) ظهر الرجل الحالي ، « الرجل العالم » «homo sapiens» ، والذي تتوافر عنه من خلال الفن ، الدلائل على تفكير ذي طابع ديني . وينتهي العصر الحجري القديم

Paléolithique في حوالي السنة 10000 . وتتحضر الانسانية للعبور من الاقتصاد البدائي في الصيد واللقط ، الى الاقتصاد الزراعي والى تربية الماشية اللذين سيقودان مباشرة الى الحضارة . وما قبل التاريخ الذي سندرسه هنا ، هو العصر الحجري القديم .

ولعله من المفيد أيضاً أن نُعرّف ما سيفهم بـ « الدين » ، وان نقول في البدء أنه لن يكون هناك أي تمييز بين الدين والسحر ، لنقص في المواد التي تبرر هذا الفصل . وسيكون المعنى نفسه لكلمة « دين » محدوداً جداً . فهو يعتمد فقط على ظاهرات الاهتمام التي يبدو أنها تتجاوز النصاب المادي . وحتى العصر القديم الأعلى ، لم يكن ثمة امكان لأي تعريف آخر : يعتبر وجود الجأب في مسكن إنسان النياندرتال واقعة دينية ، لأنه لا يمكن أن تفسّره أية حاجة للبقاء مادياً على قيد الحياة.

ويوصى بهذا الحذر الشديد لسببين . يتعلق الأول بصعوبة تعريف الظاهرة الدينية ، حتى في المجتمعات الحيّة ، من خلال شواهد مادية مجردة ، ويتعلق الثاني بطابع المصادر الضئيلة والمجزأة لدرجة أنها تحتمل تفسيرات متعددة .

وبعد الأخذ بهذه التحفظات ، لا يعود هناك أي سبب مقبول لرفض إهتمامات إنسان العصر الحجري القديم ذات الطابع الغامض حتى لو لم يكن ذلك إلا لأن ذكاءه ، وهو من نفس طبيعة ذكاء الإنسان العالم l'homo sapiens ، إن لم يكن من نفس درجته ، يستتبع ردّة الفعل عينها بمواجهة غير الطبيعي وغير المفسَّر . ولقد دشّن الانسان وطوّر ، منذ شكله الأول حتى وقتنا الحاضر ، التأمل ، إلى ما معناه قابلية ترجمة العالم المادي المحيط به برموز ، وميزة اللغة الأولى هي أن تخلق ، بالتوازي مع العالم الخارجي ، عالماً من الرموز كلي ـ القدرة بدونه لا يكون للذكاء أي تأثير . وبمقدار ما نمر

من انسان جاوة الى إنسان النياندرتال ثم إلينا، تبرهن الشواهد التي تقدمها الأدوات عن نضج تدريجي في الذكاء التقني (يتوازى على الأرجح مع اللغة) . وعلى التمكن مما نعتبره ديناً أن يكون قد اتبع نفس السبيل . وفي مستوى آخر ، فإن السلوك الديني هو أيضاً سلوك عملي بمقدار السلوك التقني ، فهو مثله يؤمن إندماج الإنسان في عالم يتجاوزه ويفاوض معه جسمانياً وميتافيزيقياً . وقد تطابق كل مرحلة من هذا الاندماج طوراً من السلوك الديني . وبدقة أكثر ، ومع أن الأطوار القديمة تستمر حتى في الإنسان الحالي ، يمكن لكل مرحلة أن تضيف طوراً جديداً يُشرف على كل الأطوار الأخرى .

طبيعة المصادر

قد يستهجن القارىء أن يقتصر البحث في التفكير على زوايا تستعار إحداها من علم الحيوان (عبادة عظام الميت) وتستعار الأخرى من علم الاناسة (ممارسات الجنازات) ومن التقنيات والفن . وذلك ببساطة لأن الأرض لم تحفظ إلا عظاماً وأدوات حجرية ومتأخراً جداً آثاراً تصويرية . إذن إذا كان إنسان جاوة يبدأ نهاره بنشيد للشمس المشرقة ، فإنّه لم يبق شيء منه : ويمكن في أحسن الأحوال أن تكون بقايا صيده ، وهيكله العظمي قد بقيت ويمكن ، مع استبعاد كل الفرضيات الأخرى ، أن تكون قد حُفظت هالة رقيقة جداً يستغلها تاريخ الأديان .

من المعروف أنّه للأسف أفضل الحفريات قد تمت ، حتى في أيامنا ، للحصول ، قبل كل شيء ، على تسلسل تاريخي للأدوات وللهياكل ، بشكل أنه قد جُردت ، إلا في فرص نادرة ، من ملاحظات دقيقة جداً تسمح بتأويل موقع البقايا . والفرق الرئيسي بين مصادر عالم ما قبل ـ التاريخ والمؤرخ ، هو أن الأول يدمر وثيقته بتنقيبه فيها . قد يكون هناك

http://al-maktabeh.com

تعادل لو تم في كل مرة تسجيل كامل مرحلة خلف مرحلة لكل ما يلاحظ . وتتطلب هذه الطريقة ، الشاقة ، عدداً كبيراً من الخطط والصور لأقل تنقيب . وفي التطبيق العملي الجاري ، بدلاً من أن تكون الوثيقة الأصلية تحت تصرف عالم ما قبل التاريخ ، شأن المؤرخ ، لا يملك الأوّل لممارسة نقده إلا انطباعات المنقب والتي تكون أحياناً جد متسرعة ومبهمة . وعندما يصف المنقب حالة « مستودع طقسي » يجب أخذ الوثيقة كما هي بدون أي تدقيق ممكن ، وعندما يذكر أن الهيكل العظمي كان يرقد على جانبه في حفرة ، علينا أن نقبل رغم عدم الدقة الغريبة للملاحظة ، ان ثمة مدفن هناك . ومع هذه التحفظات التي تنطبق على كل العصر الحجري القديم ، فقد ترك رجال النياندرتال ، في مئات الطبقات ، عدداً صغيراً من الوقائع التي تقبل ، بضآلة ، تأويل حياتهم الدينية .

وتُفرض في العصر الحجري القديم الأعلى ، نفس التحفظات على صحة المصادر . فلقد أفرغت المغارات والمخابىء التي تعد بالمئات « لاسترجاع في دراسة الطبقات الجيولوجية » ؛ فقط تعتبر بعض الوحدات كمجموعة دلالية سُجلت بدقة . وما ينقذ العصر الحجري القديم الأعلى ، الى حد ما ، هو وجود آلاف الوثائق الفنية ؛ التي يمكن دراستها إحصائياً وكشف تنظيمها الاجمالي ؛ وتعتبر الجدران المزخرفة بالرسومات أو منحوتات الكهوف بالأخص هي ما يمكن معاينتها كوثائق أرشيف كما طلاها رجل العصر الحجري القديم الأعلى .

ويمكن اعتبار أن علم ما قبل التاريخ ، رغم صعوبة الاعتراف بذلك ، والذي بلغ أكثر من مئة عام ، لا يزال في طفولته . على مستوى الحفريات فقد نضج في المجالات التي تسهل معاينتها ، ويبقى عليه أن يتعلم الكثير بخصوص المجالات الأخرى . ويخشى أن يصاب القارىء بخيبة أمل لضآلة

الاستنتاجات خاصة في الفصلين الثاني والثالث وهما جردة لسوء الفهم أكثر منهما دراسة للوقائع الدينية . وبدلاً من أن نقوم للمرة العشرين بجردة لما « يمكن أن يكون » مشتركاً بين إنسان ما قبل التاريخ وأكثر متوحش مقبول كما هو ، اكتفي هنا بتقديم ما أراد (إنسان ما قبل التاريخ) أن يورثنا إياه عن نفسه .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

الفصل الأول

عبادة عظام الموتى

جمعت في هذا الفصل وقائع يمكن أن تعزى الى أفعال ذات طابع ديني تركت شأن بقايا عظام حيوانات جمعت ورتبت عن قصد . وتعرف ، بواسطة العراقة ، أمثلة عديدة لجماجم وعظام حيوانات ميتة احتفظ بها واستعملت لغايات دينية . وليست جماجم الدببة أو الأيائل المنظومة على عصي طويلة للأينوس Aïnous في اليابان ، وركام بقايا الرنة للتشوكتشي في سيبريا الشرقية ، وجماجم القردة في داهومي (بينان) Dahomey ، المثبتة على دفوف ، ورؤوس العصافير في الأمازون ، إلا أمثلة بين جحافل حالات احتفظ فيها بالأسنان ، والمخالب والعظام الطوال والأذناب لهدف تبقى دوافعه غير واضحة تماما . وبالواقع ، يتراكب التزين الجسدي والفضائل التي تتمثل بالتجاذب والترميز الميتافيزيقي بطريقة معقدة في أغلب الأحيان . وهذه حالات قيمة جدا لأنها تبرهن أن إنسان العصر الحجري القديم قد أعطى براهينه عليها ، ولا تسمح بأن نبحث بأي ثمن عن شبيه لها .

ويقدم علم الآثار أيضا ، وقائع عديدة مشابهة : اكتشاف بعض عظام خروف على طبق يرافق مدفن ، رأس وقوائم كبش موضوعة عند مدخل جثوة ، جماجم خنزير وكبش وثور في مستودع لتشييد صرح روماني ، تستتبع افعالا دينية لم يصل إلينا منها إلا بقايا هيكلية ؛ يمكن التخيل اذن ان الشواهد تتتابع منذ علم الآثار التاريخي الى علم آثار ما قبل التاريخ .

ولسوء الحظ ، لا تقدم مواقع ما قبل التاريخ إلا قلة من الشواهد البليغة بهذا الشكل حتى عندما تستثمر بطريقة صحيحة . وغالبا ما تكون مشوهة ، فهي ليست بنى طمرت للتو ، على الأقل في الحالات العادية ، بل مساحات من الأرض تردد إليها الانسان والحيوان لعدة قرون أحيانا وردمت ببطء شديد . أما ما بقي فقد بدل مكانه أو ذاب على الأرجح بفعل العوامل الكيميائية . وأكثر من ذلك أيضا ، يمكن للبقايا العظمية أن تكون وفيرة لدرجة يصعب معها التمييز بين بقايا طعام الانسان أو الوحوش والمستودعات الشعائرية الأصلية .

أمام واقعة غريبة ، اعتمدت أحيانا وبكثير من السهولة الفرضية « الدينية » . واعتقد هكذا ، أنه يلاحظ في الكهوف ، ان الموستريين Maustériens كانوا يؤثرون حمل رؤوس طرائدهم ، لأن الفقرات التي حفظت في الغالب كانت الفقرتين الأوليين : الفقهة (فقرة العنق الأولى) والفائق (فقرة العنق الثانية) ، لأنهما بالفعل كانتا تبقيان ملتحمتين بالجمجمة عندما يقطع رأس حيوان ما . وتخيل اذن أن رجال العصر الحجري القديم كانوا يحملون رأس وقطع الحيوان ويتركون هيكله في مكانه . من هذه الملاحظة الى القول بالاهتمام الخاص برأس الحيوان لم يكن هناك إلا خطوة واحدة . والحال يبين فحص المواد التي جمعت بكاملها انه إذا كان الزمن لا يحترم الا العظام السميكة (ومنها فقرات الرقبة) فقد وجدت بقايا عظام هشة بشكل ان الهيكل بكامله كان يظهر جيدا ولكن وفق تسلسل التحلل الفيزيائي ـ الكيميائي وليس بذهنية اختيار مقصود . فلقد كسرت العظام الكبيرة ليستخرج منها اللب ، وحرقت العظام الاسفنجية لتستخرج منها الدهون القابلة للاشتعال . وبالاضافة إلى تأثير العوامل الفيزيائية ـ الكيميائية لم تبق إلا عظام الفك الأسفل وكعب الكامل وفقرات

الرقبة وجمع من شظايا عظم مطحون . من هذه الزاوية فان « عبادة الجماجم » ليست إلا حادث بسيط للتآكل .

في حالات المستودعات التي يعتقد أنها مستودعات دينية لعظام الحيوانات الميتة أو لقطع اللحم غير المشفاة من الصعب إدخال أي تنظيم منهجي ، لأن الأمر يتعلق غالبا بحالات منعزلة ، لا يربط بينها أي شيء سوى عدم وجود أي تفسير غير « طقسي » لها .

أ ـ مستودع عظام متصلة تشريحيا

إنه لمن النادر أن نلقى خلال التنقيب بقايا هيكل حيواني لا يزال يحتفظ بعلائقه التشريحية ، إذ يفترض ذلك اما أن تكون قد أودعت في نفق أو في زاوية ولم يتعرض لها فيما بعد ، او انها طمرت مباشرة ، أو أيضا احتفظ بها بعض الوقت ، بعد أن شفيت من اللحم ، وربطت برباط عظم مجفف . وعمليا ، غالبا ما تكون الأجزاء المتصلة اعضاء أو قطعا من العمود الفقري موضوعة على محيط مناطق السكن ، أو على طول الجدران أو في الشقوق . وعمليا يستحيل القول فيما إذا كانت وضعيتها ترجع الى نية في القربان أو ببساطة الى واقع ان بقايا الطعام توضع بالأحرى باتجاه الجدران وليس في وسط منطقة السكن . ويعتقد الدكتور ألان D^r Allain ، الذي يعود اليه فضل التنقيب الدقيق لمغارة سان مارسيل St. Marcel في الاندر L'Indre ، ان هناك أسبابا عملية وراء اكتشاف أذناب كاملة للخيول ، التي يمكن أن يكون قد احتفظ بها لهلبها (لشعرها الكثيف) أو لأعقاب الرنة أو العنز البري ، التي تبقى متصلة بالعرقوب وتشكل ، بعد جفافها، شلل خيطان حقيقية يحتفظ بها للوصل والخياطة . ولا يعني اكتشافها في مشكاة قرب المسكن انه كان لها قيمة دينية .

وأكثر حالة استغلت في الأدب هي حالة رنات ستلمور Stellmoor في

http://al-maktabeh.com

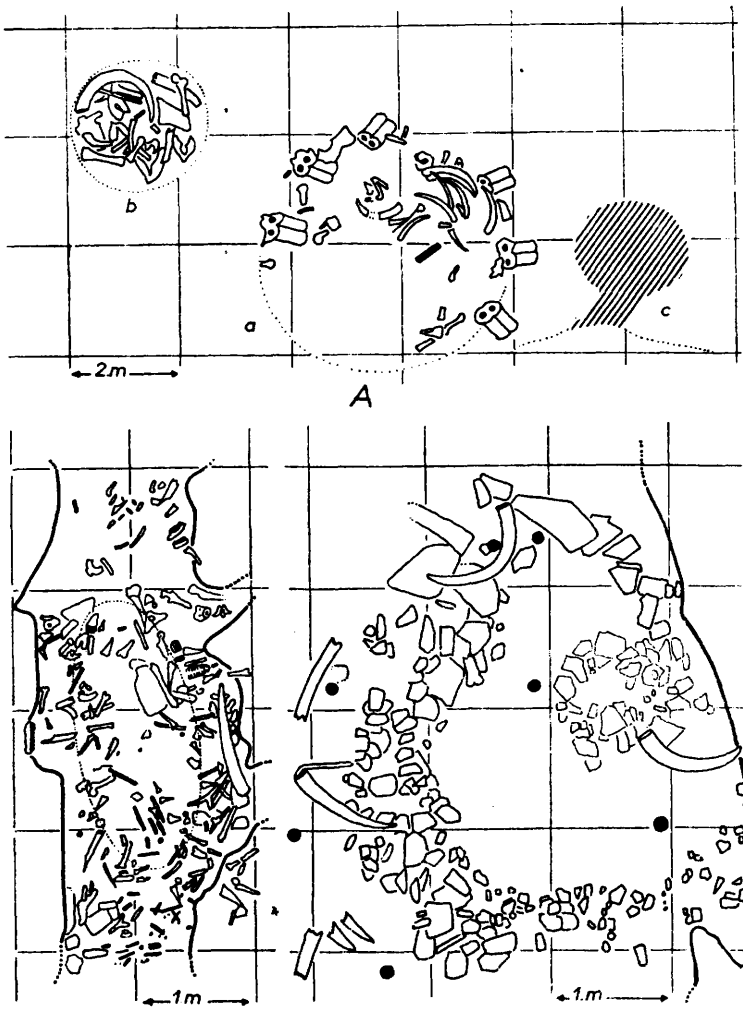

صورة رقم 1

شمال ألمانيا ، حيث وجدت عدة هياكل لاناث الرنة كان قفصها الصدري وبطنها محشوين بحجارة كبيرة . ولا نعلم كثيرا لماذا دخل هذا الاكتشاف الجميل في الأدب الديني في شكل التضحية برنات غطست بالبحيرة بعد أن استبدلت أحشاؤها بالحجارة . ولأن الأمر يتعلق بالاناث فانه يغني الصورة الغبشة لطقس الإخصاب. وحيث انه من المعروف عن الرنة البرية ان الاناث فيها تهاجر منفصلة عن الذكور ، فبالتالي ليس هناك ما يثير العجب في صيد لم يتم فيه الا قتل الاناث . ويبدو من ناحية أخرى ، أن ثمة طريقة لحفظ الصيد الفائض ضد الحيوانات الكاسرة لبضعة أيام ، وذلك بغمر الحيوانات كلية ، ولم يكن من طريقة لذلك إلا بائقالها بحصى كبيرة ، بعد أن تكون قد أفرغت ، لتحاشي انتفاخها . ولا نقول هذا لنستثني أي سلوك ديني من هذه العملية ، ولكن يبحث عبثا عن تفصيلات موضوعية بامكانها أن تؤكد سلوكا معقدا كقربان الاناث التي حشيت بطونها بالحجارة لهدف ميتافيزيقي .

ب ـ مستودعات العظام كوماً أو في تجاويف

قد يكون الحصول على عناصر إيجابية في هذا المجال مريحاً بوجه خاص ، لأنه تبين أنه عند أسكيمو الألسكا وعند جماعات هندية كثيرة يُتحاشى كسر

A ـ دوبرانيتشفكي (الاتحاد السوفياتي) .

a ـ دائرة بقايا جماجم الماموث b ـ حفرة للعظام c ـ مسكن .

B ـ أرسي ـ سور ـ كور (يون ـ Yonne ، فرنسا) أرض رواق موستريان

C ـ ارسي ـ سور ـ كور (يون)

أرض خيمة شاتلبرونيه منطقة مركزية مدعوسة ، مسكن ومحيط محاط بحجارة مسطّحة ، ثقوب للعواميد وبقايا هياكل أنياب الماموث .

al-maktabeh
المهتدين

عظام الطريدة وانها تجمع في كوم لتأمين بقاء الأنواع الحية .

وتجعل عدة شروط تفسير ذلك صعبا ، الشرط الأول مادي : إن شروط حفظ العظام المتروكة في المغارات سيئة جداً ، إذا لم تطمر البقايا بسرعة ؛ يمكن إذن وبحالات استثنائية جداً إيجاد ركام من العظام . وعلى العكس يؤمل العثور على ركام العظام ، في حالات السكن في الهواء الطلق ، إذا تم طمرها بسرعة كافية ، كما في الغرين . وتكمن صعوبة أخرى ، في أن الموستيريين ، شأنهم في ذلك شأن انسان العصر الحجري القديم الأعلى ، كانوا يسحقون العظام المجوفة ليستخرجوا منها اللب ، وإضافة الى ذلك يحرقون أغلبها كمواد للاشتعال . وتقود هذه الظروف الى التخلي عن كل فكرة مستودع ديني مقصور ، إذا لم تخرج بعض الوقائع عن هذه القاعدة العامة .

قدّم غرين مورافيا Moravie وأكرانيا Ukraine ، وروسيا Russie وسيبيريا Sibérie ، مناطق سكنية كبيرة تقوم على أكواخ يحيط بها عدد وافر من العظام ، وبالأخص عظام الماموث ، ترجع في أفضل الأحوال الى العصر الحجري القديم الأعلى ، ويرافق الآثار التي تركتها الأكواخ ، ذات الشكل المتطاول أو المستدير (صورة رقم A.1) ، حفر أصغر ملئت بعظام كبيرة وأحياناً بقطع أعضاء متصلة ببعضها تشريحياً . وقد اعتبرها أغلب علماء ما قبل التاريخ في أوروبا الشرقية ، كحفر للبقايا ، وأوّلت في مرات أخرى ، بالمقارنة مع ركام العظام عند بعض الاسكيمو ، كمستودعات « طقسية » ، وتطرح هذه المستودعات إشكالاً حتى لو تبنينا موقفاً حذراً . فظاهرياً ، لا يتعلق الأمر هنا بمخابىء للّحم ، كما اكتُشفت على الأقل : كانت البقايا مرمية فيها بعد نزع اللحم عنها . ومع ذلك لا شيء يوحي في ترتيب ولا في اختيار أجزاء الهيكل العظمي وفق تنظيم مقصود . ومع هذا

العدّد الضخم للعظام التي لا تزال على الأرض ، يمكن الافتراض أن هذه الحفر هي مخابىء للحم أو حفر ذات طابع غير محدد رُدمت فيما بعد بالبقايا . ومع ذلك ، وفي حالات نادرة حيث أمكن عزل خيمة ، يمكن أن تكون عظام الحيوانات قد جمعت في حفرة وحيدة (صورة A,1) . إذن ، يمكن الاحتفاظ ، ولكن لنقول حقاً من دون أية أدلة ، بإمكانية تفسير غير مادي .

وتبين تجربة التنقيب في ارسي ـ سور ـ كور Arcy-sur-cure حيث لم تستخرج أية عظمة خلال سبعة عشر عاماً دون أن تضبط طوبوغرافياً ، صعوبة تفسير موضوعي . وسمح السبر بدراسة تفصيلية لمسكنين للموستيريين في مغارتين (مغارة ايان Hyène ومغارة ران Renne) ولعدة مواقع لخيم انسان العصر الحجري القديم الأعلى أمام رواق مغارة ران Renne . في مساكن الموستيريين ، دفعت كمية ضخمة من العظام نحو الأطراف لتخلي مساحة مركزية وجد فيها كثير من الصوان المستعمل . وكانت هذه العظام تشكل في مغارة ايان Hyène ، وفي عدة طبقات ذات سماكة مختلفة ، حوية محيطية حقيقية ، تختلط فيها الحصى وأدوات الصوان المتناثرة . وكان يمكن إدراك بعض التراصف بالنسبة للعظم الطويل والذي جعله الكحط المستمر ينحو الى أن يكون متوازياً عند الجانبين . ولم يكن شيء على الاطلاق في ترتيب المواد العظمية يسمح بالتفكير باهتمام في الوقاية الخاصة ، إلا إذا قُبل ، بدون أية براهين أخرى ، ان العيش وسط دائرة من العظام الأكثر أو الأقل تقدماً في عريها من اللحم ، يرجع إلى هم ديني بعدم بعثرة الجثث .

ومسكن الموستيريين ، في عمق مغارة ران (صورة B 1) هو ، مع مغارة سيرسا Circé ، المثل الوحيد المعروف عن أرض تلك المرحلة والتي بقيت

سالمة ومعرضة للهواء . وعندما دخلنا إليها في عام 1954 كانت لا تزال مئات عظام وأدوات هذا الملجأ البعيد 30 متراً عن الضوء في موضعها الأصلي .

والمسكن عبارة عن سرداب بطول ستة أمتار وعرض مترين ، مع تشعبات جانبية تشكل في الشرق قبة طويلة وكان الممر الرئيسي سالكاً نسبياً بسبب انتقال السكان ، ولا تزال موجودة أيضاً الحصى التي تستخدم لكسر العظم . وعلى طول الجدران ، كان عظم الحصان ، والرنة والبقريات يشكل سماخاً من البقايا الكبيرة تعوم عليه بعض فكوك الأحصنة وقرون الرنّة . ويفسر التحرك داخل المسكن هذه الوضعية ، ومن الصعب ان نرى في ذلك نية لترتيب أكيد : إذ يقدم أي سماط من الحطب ، يقام عليه مكان للسكن ، تموضعات مماثلة . ومع ذلك ، يسجل على السطح وجود باب قصير من الماموث ، يبدو أنه وضع هناك عمداً . ولا يوجد عملياً في هذا المسكن أية بقايا للماموث ، وهذا الناب هو الدليل الجوهري الوحيد على وجود حيوان خرطومي ضخم . إذن ، ثمة أسباب وجيهة تدعو للتفكير بأنه (ناب الماموث) وضع عمداً في القبة ، غير أنه ليس هناك ما يسمح بكشف النيّة من وراء ذلك : وربما استطاع سكان النياندرتال الذين كانوا يترددون على هذا المكان ان يضعوا ببساطة هذا الناب ، الذي يخدم كهرواة أو عصا للحفر ، في أكثر الأماكن ملائمة وبعيداً عن مكان المرور .

ستستعاد مسألة « ترتيب العظام » على طول الجدران بخصوص موضوع « عبادة الدببة » . وأكثر الأمثلة كلاسيكية هو مستودع عظام الأرخص(ثور بري منقرض) والأيائل ، المرصوفة على طول جدار مغارة غواتاري Guattari في جبل سيرسا Circé في إيطاليا . وقد حفظت هذه الأرض من الترسبات ، وبقيت معرضة للهواء الطلق كما حصل في أرسي ـ سور ـ كور Arcy-sure-Cure ، ولكن أدت الماء الى نشوء قشرة من الكالسيت عملت

http://al-maktabeh.com

على تخثر جزء من العظم المتناثر بين الحجارة . وعلى هذه الأرض ، وجدت الجمجمة المشهورة لرجل النياندرتال في سيرسا . بين الحصب التي يبدو أنها أبعدت عن بعضها البعض لتوضع هناك . ولم يتخثر « مستودع » العظم المرصوف . ولا تعطي العظام التي تشكل هذا المستودع الانطباع بأن تنظيمه متعمد أكثر من تلك التي تمتد على طول جدران سرداب الموستريين في مغارة ران Renne . من الأكيد أن يكون الرجال أو الحيوانات التي مرت هناك قد أصابتها ، ولكن ان يكون رصفها تعبيراً عن قربان متعمد فذلك ليس إلا أحد الاحتمالات .

قدمت طبقات مغارة ران Renne ، وفي عدة آفاق ، بقايا خيم دائرية ، ركزها انسان العصر الحجري القديم عند مدخل المغارة . وترجع مختلف هذه المساكن الى مرحلة شاتلبّرون Chatelperron (حوالى ـ 35000) والى الاورينياسيان Aurignacien (حوالي ـ 30000) والى الغرافيتيان Gravettien (حوالي ـ 25000) . وبخصوص العظام المتراكمة أو الموضوعة في التجاويف ، فإنها تقدم بمجموعها عدداً من المعطيات تتوافق مع التي تقدمها مواقع عدة خيم تم اكتشافها في غرين مورافيا Moravie ، واوكرانيا Ukranie وروسيا Russie . وقد تخلصت المواقع الدائرية (صورة رقم C1) من كل البقايا المهمة ، ولكن هناك مزابل بين الخيمة وجدار المغارة يبين تحليلها أن الأمر يتعلق بمواد تنظيف المساكن ، تختلط فيها العظام بالرماد وبالشظايا الناتجة عن عمل الصوان والأدوات المستعملة . كما وجدت فيها بعض العناصر ، كقائمة الماموث ، والعمود الفقري للثعلب القطبي ، وبكرات ذات وتر مشكلة من عظم رسغ الرنة مختلفة بالبقايا دون أن يكون هناك أي سبب أيديولوجي لفصلها عن باقي القذارة . وهكذا فقد كشف التنقيب في بافلوف Pavlov في مورافيا، لموقع خيمة عن وجود هياكل

عدة ذئاب مرمية بلا نظام في المزبلة المجاورة للسكن . من السهل تصور عدد من الأسباب الدينية وراء هذا الركام للحيوانات الجارحة . ويمكن فعلياً أن تكون هذه الأسباب قد وجدت ، ولكن من المستحيل القول ، رغم طابع التنقيب الدقيق ، أن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هياكل وحوش رُميت بعد أن سلخت .

ظهرت في أحد مستويات مغارة ران Renne مشكاة تبلغ فتحتها حوالي 30 سم وعمقها حوالي 50 سم محشوة بشظايا عظام يعود أغلبها الى حيوان الرنّة . وكان يمكن أن يُرى في ذلك احتياطي للمواد القابلة للاشتعال ، لو لم يكن ينقصها العظام الاسفنجية التي تشتعل بسهولة ويحمل عدد كبير من تلك القطع آثار حز وصدمات تظهر امكانية استعمالها كشيء تقني . ومن المستحيل تحديد نوايا أولئك الذين حشوا هذه المشكاة : ومع ذلك سيُرى فيما بعد أن قطعة من عظم الرنّة قد وجدت مغروزة في كرة من الجأب الأحمر ، على احدى أراضي مرحلة شاتلبرون . وفي بانسفان Pincevent في معسكر فسيح تابع للعصر المجدلي (من عصور ما قبل التاريخ) تناظر بنى العظام المتكومة في ركم أو في أقواس دائرة مع المزابل أو حويات البقايا المكومة على طول جدران الخيم . وتجدر الاشارة مع ذلك ، إلى أنه يبدو أنه تم التخلص بعناية من عظام الطرائد الكبيرة ، وعلى الأخص الحصان ، خارج محيط المساكن ، لأسباب يمكن أن لا تكون عملية فقط .

حتى الآن ، فإن النتيجة النهائية لـ « التدين » رقيقة جداً ، ولا يُفهم كيف استطاع بعض المؤلفين أن يتكلموا من خلال هذه المعطيات عن مستودعات العظام كدليل على ممارسات دينية . والانطباع الذي يُستخلص دائماً من الدراسات حول دين ما قبل التاريخ هو الاستعمال بالقوة للوثائق التي ليس لديها أي شيء إيجابي لتقوله حول النقطة الخاصة المتعلقة بالدين .

ومن المعقول جداً ، في حالة هياكل ذئاب مورافيا ، أن يكون لرجال العصر الحجري القديم أفكار دينية محددة حول الذئب ، حتى انه من المعقول أيضاً ، أن يؤخذ ركام الهياكل في المزبلة بالاحترام أو بشعور من هزم قوى شريرة . ولكن ماذا يمكن أن يقال في ذلك ؟ فالاحترام ليس مادة قابلة للتحجر ، وليس أكثر ما يشبه المزبلة الا ركام من الوحوش المحمّلة بقوة سحرية كامنة . ولا يثير دين رجال العصر الحجري القديم الأعلى من الشكوك أكثر مما يثيره دين الأستراليون ، ولكنه من غير المفيد أن نربك ثقافة الانسان الحديث العامة بأدلة لا يمكنها أن تكون أدلّة فعلية .

دوائر عظام الأموات

وثمة دليل مدهش يمكن أن يستخرج من اكتشاف دائرة لجماجم الماموث تم استثماره في مؤلّف توليفي حديث . والحال ، يكثر اكتشاف دوائر جماجم الماموث في أوكرانيا Ukraine وروسيا Russie ، ولكن من المعروف جيداً ، أنه في الغرين التي تندر فيها الحجارة . كانت رؤوس الحيوانات الخرطومية ، تستخدم لمسك أسفل الخيم الدائرية التي يبنيها الصيادون . بالتأكيد من السهولة بمكان أن نرى ، ولكنه خطأ ، في دائرة عظام موضوعة حول المسكن المركزي « طقساً » وبالقليل من الجهد نتخيل أهل العصر الحجري القديم يرقصون في حلقة صارخين صرخات حادة حول جماجم الجبابرة التي قُتلت .

تتكون في الغالب ، دوائر العظام من بقايا غذائية . وأقدم مسكن عُرِف في الهواء الطلق هو موضع خيمة للموستريين اكتشفت في مولودوفا على الدنيستر Dniester ، تتشكل من دائرة عظام بقطر 8 أمتار وتحتوي على آثار ثمانية بيوت . ولا يفيد شيئاً أن نضاعف الأمثلة ؛ وتعرف مواقع أكواخ لرجال العصر الحجري القديم الأعلى موسومة بدائرة من الحجارة ،

أو بصقالات بأنياب الماموث المنهارة حيث تبدو الأنياب متشابكة بشكل نجمة ، وعظام كتف الماموث الموضوعة عمداً على غطاء الخيمة لتثبيته تظهر بغياب الخيمة كأنها تدُل على شيء غامض . حتى انه يعرف في مالتا Mal'ta في سيبيريا Sibérie ، دائرة من الحجارة كان داخلها مملوءاً بعشرات من قرون الرنة ، تشكل في الحقيقة ثقالات بجلد خيمة مخروطية أمكن إعادة بنائها بدقة .

عظام مندرجة في كتل أو في ركام

عندما كان الدكتور غروييه D' Gruet ينقب عام 1940 في طبقات موستيريان القطّار El-Guettar في تونس ، اكتشف كدسة من عدة مئات من الحصباء الكروية . وكانت كوم الكرات هذه محشوة بأكثر من 3000 حجر صوان و236 من أسنان ثدييات ومن بضع عظام مكسّرة بمعظمها . والطابع المتعمد لهذا المستودع أكيد حتماً ، كما أن التفحصات العلمية تمت بأكبر أمانة ممكنة . وقمنا عام 1950 ، في مغارة ايان Hyène في ارسي - سور - كور Arcy-sur-Cure ، باكتشاف أكثر تواضعاً ولكنه يكاد يماثله . إذ كان ، في مستوى موستيريان حديث (الذي قدم المتحجرات الضخمة نفسها التي نقلها الموستيريون الى المغارة) وفي حوالي أسفل المساحة السكنية ، يوجد حوالي عشر كرويات من الكلس تختلط فيها قطع كبيرة من عظام الماموث المقدوحة . وفي عام 1958 ، وفي مستوى أقرب عهداً من مغارة ران Renne ، كان يوجد بين كرات الجأب الأحمر المعجونة بشظايا الصوان ، والتي سنتكلم عنها فيما بعد ، واحدة لم تكن تحتوي على أكثر من قطعة من بوع (بوع:عظم يلي إبهام الرجل) مغروزة عامودياً .

يبدو إذن أن مستودعات مقصودة من العظم المكسور قد وجدت حقاً ، وبالتأكيد ، كان يمكن أن يكون هناك أمثلة أوفر لو أن التنقيب يتم بسرعة

أقل ولو يسجل الباحثون وينشرون اكتشافاتهم بالتفصيل .

عظام « مزخرفة »

إن العثور على قطع من العظم تحمل صوراً إنسانية أو حيوانية ، في العصر الحجري القديم الأعلى ، متوفر بكثرة وهي تعد بعدة آلاف ، ولكن العظم لا يلعب فيها إلا دور الحامل للصور التي وجدت هي ذاتها محفورة على صفائح حجرية أو على جدران الكهوف . ومع ذلك ثمة حالات يمكن أن يكون العظم فيها موضوعاً أساسياً ، ولهدف غير مادي .

واكتشف في أوكرانيا Ukraine وفي مزين Mézine وفي مجيريتش Méjiritch ، في طبقات تناظر العهد المجدلي عندنا ، فكوك سفلى ، وعظام كتف الماموث مزخرفة بشرائط وتعرّجات من الجأب (صورة رقم A-2 وB) . وفي طبقة أفديفو Avdeevo في حوض السييام Seïm ، أنياب وعظام كبيرة للماموث مزخرفة بحزازات مجمعة أو مرصوفة لا تبدو أنها ترجع إلى آثار عملية تقنية . واكتشفنا في أرسي - سور - كور Arcy-sur-Cure في مستوى الغرافتيان عدداً من عظم الفخذ وعظم العضد أو عظم الزند يحمل حزازات مشابهة (صورة رقم C.2) ونصف حوض يرجع للحيوان نفسه ، يحمل تجويفه الحوضي آثار جأب مُحيَت للأسف . وفي مستوى أكثر قدماً ، في الشاتلبّروني Chatelperronien ، وجد أيضاً عظم فخذ ماموث منشور من طرفيه ومغطّى بحزازات متوازية .

انه لمن الصعب تأويل هذه الوثائق ، أو بالأحرى فهي تقبل بسهولة لعب المخيلة . يمكن للعظام الكبيرة المرسومة أو المحفورة أن تكون عناصر من الأثاث ؛ إذ يمثل عظم كتف الماموث مساحة مستوية من ربع متر مكعب ، يمكنها أن تُستدخل في لوازم المنزل، شأنها شأن عظام الفخذ التي تقدم

http://al-maktabeh.com

مساحة متينة للعمل ، ويمكن لزخرفتها أن تكون غريبة عن طبيعتها كعظام ومن المحتمل انها تغطي أيضاً عواميد الخشب أو ستائر الجلد . ومع ذلك يبقى المجال مفتوحاً لإمكانية أن تكون تذكارات ذات دلالة دينية .

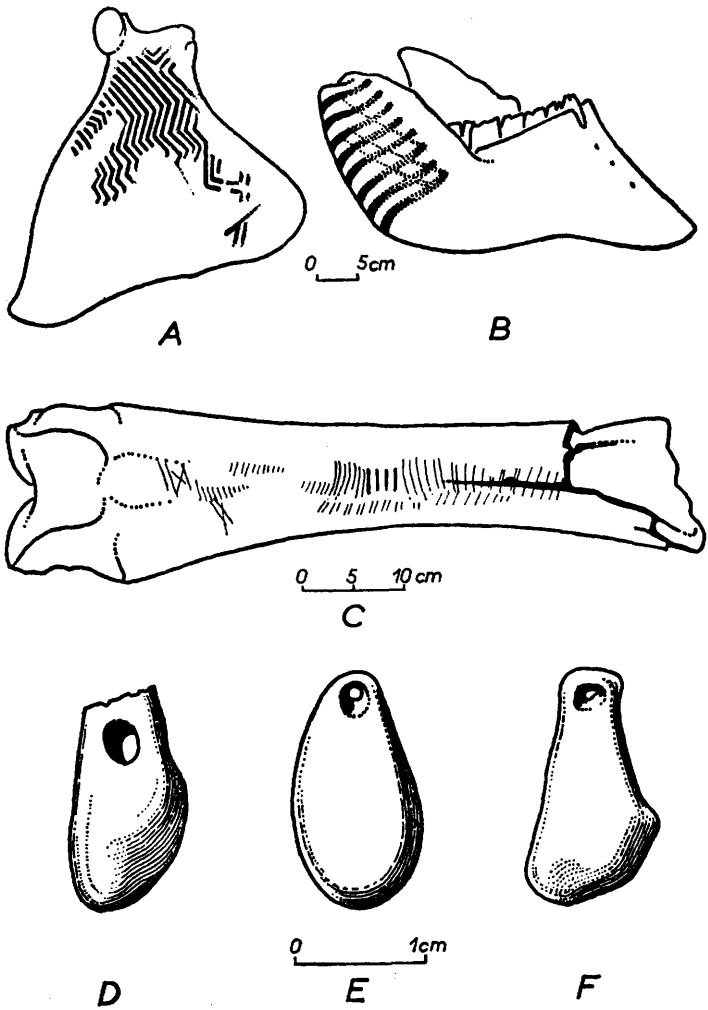

التذكارات

تظهر بعض الأجزاء المتميزة لسلخ الحيوانات منذ بداية العصر الحجري القديم الأعلى ، وتكثر الشهادات عن أسنان مثقوبة استعملت كأنواط . وأيضاً سجل عدد من المؤلفين اكتشاف مذابح لحيوانات مجترة ، من الأرخص بشكل عام ، في شروط تجعلنا نفكر أنه لم يكن لها (المذابح) أي دور تقني .

واكتشف دكتور آلان Dr.Allain مجازر الأرفص المنثورة على أرض مغارة سان ـ مارسيل (الاندر) .

ومن الصعوبة بمكان معرفة ما إذا كانت حيوانات الأرخص معلقة على الجدران مع أن وضعيتها تجعلنا نفترض أنها طُرِحت على الأرض. واكتشفت في الشروط عينها بقايا مذبحة حيوانات بيسون في ارسي ـ سور ـ كور Arcy-sur-Cure في مغارة ران ، على نفس الأرض الغرافيتية التي وجدت فيها بقايا العظام الكبيرة لماموث ، وجمجمة ثورمسكي في كوستينكي Kostienki في روسيا ، في وضعية تشير إلى أنها كانت معلقة في رأس خيمة . وأخيراً ، سجل كثير من البحاثين اكتشافات مماثلة ولكن بدون تفاصيل كثيرة .

يبدو إذن أنه يمكن اعتبار وجود قرون الحيوانات المجترة الكبيرة في

← **صورة رقم 2**

B-A ـ (مزيـن) : عظمة الكتف والفك الأسفل لماموث رُسم عليها

C ـ ارسي ـ سور ـ كور (يون) : عظم فخذ ماموث محزز ، غرافيتي .

D ـ ذات سن ايل

E ـ بحصة صغيرة بشكل ذات سن الأيل .

F ـ مشط قدم رنّة جانبي ، تقليداً لذات سن الأيل .

al-maktabeh
المهندين

المساكن كمعطى أكيد . ولم يكن عددها كبيراً شأن جماجم وأنياب الماموث ، التي تظهر حيثما وجدت كعناصر للبناء . ولا يمكن ، إلا بدليل مناقض ، رفض فرضية استعمالها التقني ، ولكن لا يبدو مستبعداً ، نظراً لدور البيسون والأرخص الأساسي في فن تلك المرحلة ، ان يكون لهذه التذكارات معنى ديني دقيق .

وليس من المستحيل أن تعود هذه الممارسة الى أبعد من العصر الحجري القديم الاعلى . وبالواقع ، فقد اكتشف ، في مغارة تشيك ـ تاك Techik-tach في تركستان ، هيكل طفل نياندرتال يجثم بين خمس مذابح من العنز البري شبه مرتبة في دائرة (صورة D.3) . ولقد اعتُرض على العلاقة بين المذابح وهيكل الطفل مع انها محتملة ، وشُكل اكتشاف مذبحة من الايل على مدفن في مغارة قفصه Qafseh في فلسطين تأكيداً مطلقاً لهذه العلاقة .

لا تحصل ولا تُناقش الاسنان المعدة للتعليق بالعنق أو بثقب طرف الجذر . ومن المستبعد استعمالها كأدوات ، يمكن فقط أن تعتمد كأدوات للزينة . دون أن نستثني ارتباط هذه الغنائم بمعنى ديني . ويقدم احصاء 300 سن معدة للتعليق ، حصل عليها من مناطق مختلفة للعصر الحجري القديم الاعلى في اسبانيا وفرنسا وألمانيا وموارفيا والاتحاد السوفياتي ، جدول التوزيع التالي :

أنياب ثعلب	:	%31
أنياب ايل	:	%25
قواطع مجترة	:	%16
قواطع كواسر	:	%14

قواطع حصان	:	%6
أضراس أمامية للكواسر	:	%2
أنياب دب	:	%1,5
أنياب ذئب	:	%1,5
أنياب ضبع	:	%0,7
قواطع مرموط	:	%0,7

وهذا الجدول مُحيِّر ؛ وقد يظهر تحقيق مفصل على عدة مئات من الأمثلة فروقات تبعاً للمراحل وللمناطق ، وبمقدار ما يكون التحقق ممكناً ، يبدو السبر صحيحاً : فمثلاً لا يوجد فرق محسوس في نسب السلاسل الاسبانية والروسية ، والأفضلية في كل مكان لأنياب الثعلب و « لذات سن » الايل ، ولقواطع الحيوانات المجترة مكانة جيدة بينما قواطع الحيوانات الشقر الكبيرة ، التي خُيل ان لها نجاحاً عظيماً كانت على العكس نادرة جداً . ويطرأ تصحيح أولي لأنه يمكن أن يكون الحصول على أسنان الثعلب أو قواطع الحيوانات المجترة أسهل من الحصول على قواطع الدب ، ومع بقاء وظيفة « الزينة » مهمة ، يبقى الفارق الاحصائي بين الاسنان المألوفة والاسنان النادرة . ولو كانت الدوافع دينية فقط ، لكان ممكناً أن تتغير النسب .

وعلى العكس ، فإن مسألة « ذوات سن » الايل واضحة جداً . لم يكن الأيل وفيراً في أية مرحلة من مراحل العصر الحجري القديم الاعلى ؛ إلا في اسبانيا ، حتى انه حيوان تندر عظامه في مزابل الأطعمة . ومن جهة أخرى ، فإن قواطع الايل ليست فنية بشكل خاص (صورة D.E.F.2) . ومع ذلك ، فهي تظهر من الشاتلبروني Chatelperonien وترى في كل الأمكنة حتى العصر المجدلي ، إضافة الى ذلك ، لا تزال تستعمل حتى في

أيامنا هـذه حيث تشكل أيضـاً ، تذكـاراً معتبراً . ويبـدو أنها كانت ثمينـة لدرجة أنه يُعثر ، ومنذ البداية على نسخ عديدة عنها مقطوعة من العظم أو العاج أو تذكر بها حصى صغيرة لها الشكـل عينه . يبـدو إذن أنه علينـا أن نأخذ بعين الاعتبار دوافع أخرى بخصوص هذا التذكار . ويبدو أنه مقبول بوجه عام ، وعلى ذمة المقارنة بين الشعوب ، ان الايل يرمز إلى الـرجولـة ويبقى هذا صحيحاً سواء عند الصينيين أو في ثقافتنا الخاصة . ويظهـر ان الامر كان عينه عند انسان العصر الحجري القديم الأعلى ، وسيُرى فيما بعد ان الايل ، في الكهوف المزخرفة ، كان من الحيـوانات التي تشبـه بالـرموز الذكورية .

وتتعدد الأمثلة على المخالب أو السلامى التي كـانت تحمل المخلب، في مواقع العصر الحجري القديم ، المتوسط والأعلى . ويمكن التساؤل عما إذا كانت هذه المخالب تستعمل كتذكارات . ولا يمكن أن يتم الجواب على هذا السؤال إلا إذا وجدت مخالب في عقد لا يزال في وضعيته الأصلية ، لأنه إذا كان تعليق السن يتطلب اعداد جذرها ، فإن تعليق المخلب يتم بثقب طرفه الذي يختفي سريعاً في الأرض ولا يبقى غير السلامى التي لا تكشف عن أثر أي تحضير .

بالمختصر ، تندر جداً الوقائع الايجابية المتعلقة بـ « عبادة العظام » : ولا يُـرى ، مـا عـدا بعض العـظام المـزينـة ، والأسنـان المعـدة للتعليق ، إلا افتراضات غامضة . ولا ينتـج عجز المـواد بالضـرورة عن ضعف الشعور الديني ، بل ينتج عن غياب الممارسات التي تركت آثاراً ملموسة ، وهذا ما يقود المؤرخ إما الى الصمت وإما إلى مزاعم لا فائدة منها .

عبادة الدب

إن عبـادة الدب هي الأرض المفضلة لبنـاءات الصدفـة ، حيث يختلط

http://al-maktabeh.com

الحق بالباطل بسهولة لدرجة أنه بعد ثلاثة أرباع قرن من العمل وعشرات الحفريات ، لا يـزال النقاش مفتـوحاً وسيبقى كـذلك عـلى الأرجح لفتـرة طويلة .

يعتمد نسيج الرواية العلمية على وجود جماجم وعظام لدببة الكهوف في مغارات أوروبا الغربية والوسطية العميقة ، مـوضوعـة بشكل يـوحي بأنها وضعية مقصودة . ومن بين عدد كبـير من البحاثـين ، وجد بعضهم عـدة جماجم لدببة مرصوصة في تجاويف من الحجر (باخلر في سويسرا) ، ووجد عـدد آخر من البحـاثين عـظاماً مـوضبـة عـلى طـول الجـدران (كثـير من البحـاثين) ، جمجمـة موضـوعة في مشكـاة (سوتـز في سيليزيـا) وصوان يلامس جمجمة (اهرنبرغ في النمسا) . وجماجم خبأت عظاماً في منخورها أو في أقـواس وجناتهـا (باخلر ، اهـرنبرغ) ، وجمـاجم مغـطاة بكتـل من الصلصـال (كاهن ليمـوزي Lemozi) ، وأقرب عهـداً ، اكتشف مدفن للدببـة (بـونيفـاي في الـدوردوني Dordogne) واكتشفت جمـاجم تبـدو موضبة على الأرض عمداً (مالز في يوغوسلافيا).وعام 1946 ، قمنا بأنفسنا في سـون ـ اي ـ لـوار (Saône -et-Loir) بـاكتشـاف « دائـرة » من الجماجم ، أخذت مكانة كبيرة جداً في ملف دببـة الكهوف مـع اننا قمنـا بضبطها بعد ذلك . أمام هذا السيل الهائـل من الأدلة البينـة والمكانـة التي يحتلهـا الدب في الشعـور الديني في كـل العالم الاورو ـ اسيـوي وشمـال ـ امريكا ، توطد الاعتقاد المتين بعبادة الدب . ولقد هاجم هذه الحركة بحاث من بال Bâle هو ف. كوبي F.Koby ، الذي برهن أن كثيراً من الأدلة ترجع الى الصدفة ، وان الدببة نفسها تدور في هياكل سابقيها .

وبالواقع ، ترجع الأدلة المذكورة ، إما إلى تراص رزم العظام ، واما الى مستودعات الجماجم والعظام في الشقوق والتجاويف ، واما الى أرضيات

تغطي جماجم أو عظاماً ، وإما الى هضاب من رواسب أثاث يغطّي البقايا . ويمكن لكل هذه البنى أن تشرح من خلال سلوك الدببة نفسه ، مع أنه يمكن أن يكون الانسان قد أحدث بعض التعديلات في حالات خاصة .

كان دب الكهوف يشتى فردياً أو جماعياً في المغارات ، بعيداً عن المنطقة المضيئة ، هناك حيث تستقر الحرارة بشكل ملحوظ . وكان يدور على طول الجدران ، يعمل فيها مخالبه ، ويحفر مشكاة بشكل منفذ (cratère) حيث يمضي سباته هناك وحيث تضع الأناث صغارها وتربيها . وخلال السبات ، تتوقف حياة بعض الدببة من مختلف الأعمار ، ولقد غطت آلاف الهياكل أرض أفضل الملاجىء ، وتبعاً للشروط الفيزيائية ـ الكيمائية ، حفظ بعضها أو على العكس اختفت أغلبيتها . وهكذا ، لا نجد في مغارة روفينياك Rouffignac في الدوردوني Dordogne ، وفي مئات مشكات الدببة التي سلمت والتي لا تنقطع فيها وعلى عدة كيلومترات عُصَابات من ضربات المخالب ، لا نجد فيها عملياً أي عظم .

لقد أحدثت آلاف الدببة ، التي تدور وتكشط بين العظام المتناثرة ، تغيرات جدّية في نسق الهياكل . وما عدا حالات استثنائية ، لا يوجد على الاطلاق عظام متتالية ، ويمكن في مساحة معينة إرجاع جزء من العظام الطويلة الى عدة أفراد مقلوبين . وما يدعو إلى العجب، انه إذا لم يفكر أحد بأن يُرجع للانسان فوضى الهياكل ، فإنه ما ان توجد أربع عظام فخذ محصورة في نفس الشق ، حتى يتسم انسان النياندرتال بعبادة الحيوانات المتوحّشة .

علينا أن نكون قد نقبنا بأنفسنا التشابك اللامعقول لعظمة دببة لنفهم أو حتى لنعذر عالم ما قبل التاريخ على تصوره للترتيب الواعي الذي يتملكه .

وفي سَبر دقيق جداً في بعض الأحيان ، يطرح شيئاً فشيئاً العظام التي يسهل استخراجها ، ويجد نفسه أخيراً ، بالقرب من الجدران ، أمام مشكاة تجثم فيها ثلاث أو أربع جماجم متراصة من دون فكها الأسفل بشكل عام ، مع بعض عظام طويلة قاومت جهده لاستخراجها .

كانت الدببة تسير في كل جهة وتطحن جزءاً كبيراً من العظام التي سبق أن هاجمها التخمر والتآكل . وكانت قوائمها تطرح تدريجياً جزءاً من القطع ، مع الحصى ، تحت زوايا الجدران أو بين الكتل . وهكذا أمنت الجماجم التي حُركت من مكانها وطُمرت بقاءها الجيولوجي ، فكانت تأخذ مكانها في الفجوات وتتراصف في الشقوق. ومن الطبيعي جداً في هذه الأمكنة أن يكون هناك كثافة في الجماجم ، وإذا دخلت بعض السلاميات في المنخور ، فليس هناك ما يستدعي إرادة واعية لذلك . والأمر عينه بالنسبة للعظام الطويلة ، ولقد ذُكرت الارضيات وحيطان الحجر عدة مرات . وكل معظمات الدببة « مبلطة » تقريباً ، أي ما معناه أن كل طبقة من العظام تنفصل من الطبقة التالية بمرحلة خفيفة من الترسبات السريعة التفتت حيث تغلب الصفائح الجافة على صفائح الصلصال . وهذه واقعة جيولوجية ثابتة كفاية ، حتى خارج كهوف الدببة ، لأن لا نعطيها أي معنى آخر . وعند الجدران الغائرة ، يتجه ركام الصفائح الى الانزلاق تحت ضغط المواد الخارجية والتي تتجه ببطء نحو الجدران . وينتج عن ذلك أن يأخذ جزء من الصفائح اتجاهاً عامودياً ، خالقة بذلك تجاويف صغيرة مزيفة تغطيها بالضرورة الصفائح الأخرى ، التي تبقى أكثر أو أقل أفقية . ولما كانت الرواسب السهلة التفتت رقيقة جداً عند الجدار ، والتي غالباً ما تغيب كلية عنه ، فإننا نجد أنفسنا تجاه صفائح عظمية وجماجم حفظت بشكل رائع ، تتجه وتتموضع في شبكة بلاطات تتجه بنفسها عامودياً وافقياً أو مكدسة في

سماكة ثلاث أو أربع طبقات .

عندما كان الدب يحفر مشكاته ، فإنه كان يقوم بفرز مهم للعظام ويخلق مساحة حرة تقريباً ، حفرة تحيط بها حُويّة من الصلصال أو أكمة . وتحتوي هذه الحويّة على الجماجم والعظام الطويلة التي طرحها ، ومن الأكيد أن كل أكمة تخفي بقايا هيكلية . وللأسف ، لم يتمّ على الاطلاق وضع جردة دقيقة لمحتوى هذه « الجثوات » ولم تكن تلك التي نقبناها تحتوي على جمجمة أو أكثر فحسب ، بل احتوت أيضاً على كل المادة العظمية الصغيرة المتناثرة ، التي لم تجعل من الجماجم إلا عارضاً مدهشاً ولكنه قليل الدلالة في النهاية .

ليس رياء الدب شيئاً مبالغاً فيه ولقد انتهت تجربتنا الأولى مع معظمة بسراب فاتن . كان الأمر يتعلق بغرفة صغيرة ذات جدران غائرة ، دائرية بعض الشيء يراوح قطرها حوالي ثلاثة أمتار . حفرت فيها الدببة ، في عدة طبقات تفصلها بلاطات ، وجارها الذي يشكل بالاشتراك مع الجدران الغائرة ، أجمل فخ يمكن أن يحلم به عالم ما قبل التاريخ . وعندما انتهى الصقل ، كانت الغرفة الصغيرة محاطة بدائرة من جماجم الدببة ، مبعثرة الاتجاه ، ولكن أغلبها كان أفقياً ويرتاح على وجهه . وكانت صفائح مختلفة الاتجاه تعترض بين الجماجم وبعضها يرتاح على صفائح مماثلة تشكل صواني لها . كان عمل الدببة وطرح العظام الصغيرة يكفي بشكل لا واع لانجاز بنية لا يمكن أن يدخل الشك في تدخل الانسان فيها .

وتثير حالة رغوردو Regourdou في الدوردوني الدهشة أكثر ، إذ يوجد فيها « جثوات » وبلاطات تغطي عظاماً ، قد لا يدعو هذا الى العجب ، ولكن هناك أيضاً وجنباً الى جنب مدفن إنسان ، ومدفن دب أعد بين كتلتين . وليس من المناسب أنْ نرفض تأويل م . بونيفاي M.Bonifay بكليته خاصة أن الأمر لا يتعلق بدب الكهوف ، ولكن بالدب الأسمر الذي يندر

وجوده في المغارات . للوهلة الأولى ، لا ينقص المشهد الكلاسيكي أي شيء : « جثوة » ، عظام مجمعة ومرصوصة بين الكتل ، رزم من العظام الطويلة ليس فيها أية صلة تشريحية : ولكن يبقى أنّ النياندرتاليين قد سكنوا هذا الموقع الذي يوجد فيه عدد من أحجار الصوان المصقول وتركوا فيه فرداً منهم . وكما أنه يلزم في كل مرة يتم فيها دفن جسد في أرض معجونة بالعظام ان نفسح المجال ، فمن الممكن جداً أن يكون الحفّارون النياندرتاليون قد ساهموا في عمل الدببة وشكلوا مستودع عظام حقيقي في أحد الشقوق . انه « مدفن » دب ، بدون شك ولكنه خالٍ من أية فكرة ـ خلفية دينية .

ماذا يبقى في النهاية من عبادة الدببة ؟ مع طرح كافة الأسباب الطبيعية ، لا يبقى شيء متماسك . والشهادات هشة جداً ، إما لعدم التقصي الجدي وإما لنقص الخبرة في مجال معظمات الدببة (وكانت هذه حالنا الخاصة) ومع ذلك ، إذا لم تقدم الرواية الآثارية أي شيء عن الدببة ، يبقى هناك نقاط للتوضيح .

في البدء ، علينا أن نأخذ بعين الإعتبار أن الوقائع المزعومة ترجع كلها الى العصر الموستري وليس الى العصر الحجري القديم الأعلى .

وقد يرجع هذا ببساطة الى واقع ان دببة الكهوف ، كانت قد أبيدت في كل مكان تقريباً ، قبل العصر المجدلي ؛ ولكن المجدليين الذين كانوا يترددون على المغاور يعرفون أن يميزوا بالتأكيد جماجم الدببات الكبيرة ؛ ويصيدون الدب الأسمر ويعرفون بالتالي هيكله . إضافة إلى ذلك ، كان الدب ينتمي بالنسبة اليهم الى حيوانات الدائرة الاسطورية وسنرى فيما بعد ، انه من أكثر ممثلي الجماعة سرية بالاضافة الى السنوري الكبير والكركدن . ولا يستبعد إذن ، أنه في الأماكن التي بقيت فيها عظامه ظاهرة

http://al-maktabeh.com

للمجدليين ، أن يكونوا في بعض الأحيان قد اهتموا بهذا الكائن الغامض الذي يجثم في الدهاليز المظلمة . يبقى أخيراً أن الموستريين كانوا يعيشون في الغالب على معظمات الدببة وعندما يعرف الى أي خلط عظام كانوا ينكبّون في مساكنهم (أنظر ص : 19) ، يصبح من الممكن أن يكونوا قد زادوا على « ترتيبات » الدببة نفسها . وليس مستبعداً أن يكونوا قد أظهروا بعض الاحترام لهذا الحيوان الوحشي الذي عرفوه حياً . ولكن لم تُثبت حقاً أية واقعة ذكرت حتى الآن فرضية « الممارسات » .

الفصل الثاني

الممارسات الجنائزية

يمارس كل ما يتعلق بهيكل الانسان أثراً عميقاً على عالم ما قبل التاريخ وهو المجال الذي يختلط فيه الحق بالباطل بأوضح لا مبالاة . ويحمل هيكل عظمي صحيح لرجل من العصر الحجري القديم المتوسط نصراً حقيقياً لمكتشفه ويُفهم بالتالي كيف أن هم حفظ مستند كهذا انسى بشكل عام تأمين الشروط التي كان يجثم فيها . وقد كنا نصدم علماء ما قبل التاريخ قبل جيلين باتهامنا إياهم بعدم رباطة الجأش وبنقص الوعي العلمي لديهم ؛ وليس أقل من أننا لا نملك حول شروط الموقع المدهش لكوكبة رجال الدهر الرابع إلا بعض رسومات سريعة غامضة وصور نادرة تظهر على الأخص السرعة التي تمت بها إزالة الانقاض عن الرفات الثمين .

أيمكن أن يوجه اللوم الى باحثين ، اعتقدوا في أغلبيتهم أنهم قاموا بأفضل ما يستطيعون به ؟ فقد سجلت غالبيتهم ، وبكثير من الدقة ، في ذاكرتهم ، تفاصيل كان يمكن استخراجها منهم في حياتهم ، ولكن يدهم لم تكن لتترك عن طيب خاطر المكشط لتمسك بالقلم . إضافة الى ذلك ، كان الاكتشاف يتم صدفة في بعض الأحيان ، فيقع على يد هاوٍ جاهل أو عامل يصعب لومه على جهله بالرسم الهندسي والتصوير .

عبادة « الفكوك السفلى »

إنها فرضية علمية ، تعتمد على النسبة الكبيرة للفكوك السفلى لأناس

متحجرين بالنسبة الى باقي الهيكل العظمي (فكوك مناطق نوليت Naulette ، مور Mauer ترنيفين Ternifine ، مونموران Montmaurin ، ارسي - سور - كور Arcy-sur-Cure ، وغيرها) . وحمل هذا التواتر الغريب بعض المؤلفين على التفكير بأن ناس العصر الحجري القديم(من الممكن أن انسان مور كان نوعاً من انسان جاوة) كانوا يكنّون احتراماً طقسياً لهذا الجزء الذي يسهل نقله من أمواتهم الأعزاء أو من أعدائهم المنهزمين . ويسمح تواطؤ العراقة (éthnographie) بتدعيم هذا الموقف (مع انه قد تم ذات يوم في مكان ما) الذي ليس فيه بذاته ما يدعو الى العجب . وإذا جمعت ، بالواقع ، الفكوك السفلى والجماجم وعظام الفخذ من أحفوريات ناس العصر الحجري القديم والنياندرتاليين ، فستمثل حصة الأولى (الفكوك السفلى) 48% من الكمية والجماجم 33% بينما لن تبلغ عظام الفخذ أكثر من 19% .

يبدو الاحصاء إذن سلاحاً مناسباً ليظهر شرعية عبادة الفكوك السفلى . ويمكن التساؤل حول الشروط التي تضمحل فيها أجزاء هيكل الانسان المختلفة والتي تضمحل فيها الحيوانات في أرض مساكن العصر الحجري القديم . وتتغير الشروط الكيميائية والفيزيائية تبعاً لكون الجسم متروكاً بكامله على السطح دون أن تهاجمه الحيوانات الكاسرة ، أو التهمه الانسان أو الحيوان ، أو إذا كان جسداً مدفوناً ، أو موضوعاً قرب مدخل الكهف أو في عمقه . وبعد ان أقمنا ، لأسباب تتعلق بعراقة ما قبل التاريخ ، هذه الشروط على الأنواع الناتجة عن مواقع سجل فيها وجمع كل شيءٍ (مغارات الضبع (ايان Hyène) والرنة (ران Renne) في ارسي - سور - كور) اخترنا بقايا الذئاب والضباع في مسكنين للموستريين وبقايا الثعالب التي جمعت في وجارات حديثة . وقد فُرض اختيار الذئاب والضباع لأنه يمكن أن لا يكون الانسان قد استهلكها ، ولكنها اضمحلت كما يضمحل جسد آدمي

متروك بدون دفن ، وتم اختيار بقايا الثعالب الحديثة للمراقبة . وهذه هي النسبة المئوية التي حُصل عليها من 474 مستند عظمي :

	ذئب	ضبع	ثعلب	ذئب + ضبع + ثعلب	نياندرتال أوروبا
	%	%	%	%	%
أسنان	62	82	35	60	60
فكوك سفلى	19	10	15	15	20
عظام الفك	10	2	9	7	5,8
عظام طويلة	7	4	39	17	13

ما عدا الفوارق في النسبة ، يلاحظ ان نتائج الكواسر الثلاثة متقاربة جداً . واذا الغيت أسباب المتغيرات الخاصة بشروط الوسط وحتى بهندسة جمجمة كل نوع ، يحصل على معدل وسطي قريب جداً من النياندرتاليين .

إذن ، يجب إما أن يكون النياندرتاليون قد اتبعوا نفس سيرورة التفتت التي اتبعتها الحيوانات الكاسرة ، واما ان نقبل ان الثعالب الحالية لديها ورع خاص تجاه الفكوك السفلى لاسلافها . ويبقى فقط ، واقع مادي محدد جداً وسنجده بخصوص المدافن : تختلف قابلية الانصهار بين جزء وآخر من الهيكل ، والفك الأسفل هو من أكثر الأجزاء مقاومة للتآكل .

وكخلاصة أولية ، يمكن اعتبار انه إذا كان من غير الممكن البرهان على عبادة الفكوك السفلى ، فعلى العكس ، من المحتمل أن جزءاً كبيراً من

سكان العصر الحجري قد اختفى ، دون أن يترك أية آثار مهمة ، متروكاً على أرض الكهوف ويحتمل أن تكون الحيوانات الشقر على الأقل ، قد التهمته . وليس هناك من مستوى في مغارة ارسي ـ سور ـ كور لم يقدم بضع أسنان آدمية ، شواهد ضئيلة على سكان اضمحلّوا .

ومع ذلك ، تعرف على الأقل بعض الوقائع الايجابية : فقد وُجدت في مغارة الأخوة الثلاثة (Les Trois Frères) في أرياج Ariège ، قطعة من الفك الأسفل لطفل . مثقوبة للتعليق : وعثر على ضرس مثقوبة للتعليق وتحمل علامة مسننة منقوشة على جذرها في لاكومب La Combe في الدوردوني Dordogne ، وعثر في دولني ـ فستونيس Dolni-Vestonice في مورافيا على قاطعة مثقوبة للتعليق أيضاً : ويتعلق الأمر بوثائق تعود الى العصر الحجري القديم الأعلى .

الجماجم المنعزلة

من الصعب جداً تأويل بعض الاكتشافات ، خاصة بين أقدمها ، لجماجم منعزلة . ويخيل في بعض المرات انه إذا كانت الجمجمة منعزلة فلأنها لم تستطع ان تفلت من انتباه البحاثين العرضيين . وكنا في حالات أخرى عرضة لانطباع عزلة غير مبرر . وحتى الآن ، يمكن أن نقرأ ان انسان بكين ، قريب إنسان جاوة الصيني ، كان يُجلّ ويجمع جماجم أقرانه . وفي الشروط التي تمت فيها حفريات التشوكوتي Choukoutien سنرتبك للعثور على مخطط مفصل لمستودع جماجم ، اقتلعت من ركام متماسك حيث كل واحدة منها كانت أبعد من ان تكون كاملة . مهشمة الى أجزاء دقيقة ، فإنها تدخل فيه فئة بقايا الحيوان عامة ، ولكن لا يُفهم كيف أمكن لاسطورة انسان بكين المجمِّع (للجماجم) أن ترى النور ، عندما نلاحظ أن النسبة العددية للاسنان المعزولة وللفكوك السفلى وللعظام الطويلة تدخل

http://al-maktabeh.com

في الرسم البياني العام الذي أعد أعلاه بالنسبة للحيوانات الكاسرة .

يمكن العثور على جمجمة منعزلة لأسباب مختلفة جداً : فقد يتعلق الأمر بتذكار حقيقي ، أو برفات حقّة . وهناك مثل من العهد المجدلي لا يقبل المناقشة ؛ فقد استخرجت عام 1961 في ماس ـ دازيل Mas-d'Azil في أرياج Ariège ، جمجمة أنثوية شابة محرومة من فكها الأسفل ، وفي محجريها صفيحتان من العظام المصقولة تمثلان العينان (صورة رقم A.3) . ويبدو أنه لم يتم العثور على الجمجمة في موضعها الأصلي . فقد كانت تجثم مقلوبة على جنبها ، على رأس حوية من الحطام تسد قبة نازلة .

وهذه هي الحالة الوحيدة التي لا تناقش لجمجمة محضرة والتي يمكن ذكرها في كل العصر الحجري القديم . وهي تسبق بقرون قليلة الرؤوس المقطوعة والمطمورة على انفراد التي يعثر عليها في العصر الميزوليتي (العصر الحجري الأوسط) Mésolithique . ومن العبث أن نحاول إعادة تشكيل الدور الحقيقي الذي كانت تلعبه هذه الجمجمة . وقد تأتي المقارنة العراقية (التابعة للعراقة) لتهدينا تفاهة عبادات الاسلاف ، أو تذكارات صيادي الرؤوس أو لواحق الشافين ؛ ومن الأفضل أن يكتفى من كلّ ذلك بالدليل الخام.ولقد سجل في العصر الحجري القديم الأعلى في فرنسا واسبانيا وأوروبا الوسطى ، قطع من قبة جمجمية منشورة بالصوان أو موسومة بحزازات . ورغم طابعها الايجابي، من الصعوبة بمكان أن نستخرج منها ما يرجع الى ممارسة أكل لحوم البشر أو إلى استعمال الكؤوس الجمجمية لغايات غير واضحة أو ، شأن قطعة الفك الأسفل الصغيرة في مغارة الأخوة الثلاثة (Trois-Frères) ، ما يعود الى لبس قطع آدمية .

تعتبر الاحدى عشرة قحفة في نغندونغ Ngandong في جاوة Java ، والتي لا تبعد عن طبقة ترينيل Trinil الشهيرة حيث اكتُشف انسان جاوة ، تعتبر

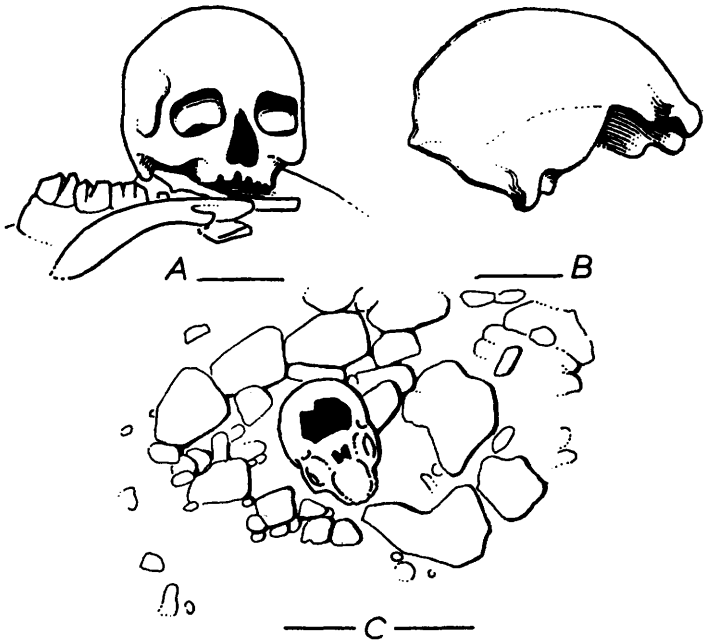

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

تذكارات أو بقايا وجبات آكل لحوم البشر . بينها قحفتان أو ثلاث كاملة ، يبدو أن وجهها قد نزع منها (صورة B.3) . والباقية قطع من القلنسوات الجمجمية . ولقد شدد على واقع نقصان عظام الوجه وانه بالإضافة الى ذلك ليس هناك سوى شظيتين (عظمتي ساق) . ويبدو تركيب الكمية غريباً للوهلة الأولى : لا يجب أن نأخذ بعين الإعتبار نزع الوجه عن جمجمة طازجة كما أنّ قحفات نغندونغ Ngandong كانت قد عزلت عن وجهها على الجمجمة بعد جفاف هذه الأخيرة .

يتواتر فقدان الوجه بكثرة في كميات العظام التي نبشت في كل المراحل . وينتج ذلك إما لهشاشة العظام وإما لنقص العناية بها عند استخراجها . ومن العادي ، عندما يحمل بحاثة عرضيون « هيكلاً » الى الاختصاصي ، ان يكون هذا الهيكل قد تقلص الى القلنسوة الجمجمية وبعض عظام العضد أو عظم الساق. وغالباً ما يلتقي الاختصاصي جماجم يتفتت وجهها عند أقل لمسة ، أو انها تتفكك الى عشرات القطع . وتصير استعادتها عندئذٍ أمراً طويلاً جداً وفي غاية الدقة . ويمكن الافتراض إذن ، لنقص في البيانات والصور المفصلة ، اما ان رجال نغندونغ Ngandong ، وهم جسمانياً بدائيون أكثر من النياندرتاليين ، كانوا بالفعل يجمعون القحفات التي نزع وجهها ، واما ان بقايا الوجه كانت في حالة لم نستطع معها أن نعثر عليها أو أن نلاحظ آثارها .

← صورة رقم 3

A ـ ماس ـ دازيل (أرياج) : جمجمة انثوية زينت محجريها دوائر عظمية .

B ـ نغندونغ (Ngandong) ـ قحفة جمجمية .

C ـ مون ـ سيرسي (ايطاليا) : جمجمة موضوعة على دائرة من الحجارة .

D ـ تشيك ـ تاك (تركستان) : بقايا هيكل عظمي لطفل نياندرتالي يرقد على نفس أرض ذبائح الوعول .

وأشهر الجماجم المنعزلة هي جمجمة مغارة غواتاري Guattari في جبل سيرسي Circé ، ففي شباط 1989 ، عثر البارون أ. س. بلان A.C.Blanc ، وكان من أشهر علماء ما قبل التاريخ الايطاليين ، عثر ، في المغارة التي اكتشفها الفندقي غواتاري في العشية ، على جمجمة نياندرتالية موضوعة في مشكاة من الحجارة في عمق إحدى القاعات (صورة رقم C.3) . وكانت عظام الحيوانات منثورة على الأرض ومغطاة بتخثرات ، ويبدو أن الجمجمة ، وهي بدون فكها الأسفل وبدون أية أجزاء أخرى من الهيكل ، قد تركها النياندرتاليون هنا في حالتها العظمية ، أو انها سُلخت على الأقل ، من معظم لحمها . وحطم محجرها اليمين قبل الايداع ، كما حطم الثقب الخلفي ووُسع . وقد أُوِّل هذان التشويهان كآثار لضربات قتلت رجل سيرسي Circé وكتوسيع للثقب الخلفي لاستخراج الدماغ « وأكله ، اطاعة للواجبات الطقسية » ، حسب اقتراح المؤلف . من الأكيد أن الجمجمة قد وضعت ، وهذا لوحده كافياً ، أما ان يكون الرجل قد صرع وأكل فليس الا احتمالا . يمكن أن تكون الجمجمة قد استخدمت قبل أن تسقط ، شأن جمجمة ماس ـ دازيل Mas-d'Azil ، في احدى زوايا مؤخرة المسكن ومن الممكن أنها قد تعرضت لصدمات . ولا تنقص هذه التحديدات من الفائدة التي يقدمها هذا الاكتشاف المدهش : ولا يهم سواء أُدخلت القطعة الى الكهف جافة أو طازجة الا بمقدار ما يمكن البرهنة على هذا الظرف أو ذاك .

يمكن للاكتشافات الأخرى لجماجم منعزلة أن تؤكد اكتشاف جبل سيرسي Circé ؛ ولكنها وللأسف مغلفة بالشك لدرجة أنه لا يمكن القيام بشيء آخر سوى عدها . في عام 1960 ، جمع مغوريون (اختصاصيون في اكتشاف المغاور) يونان ، من أرض كهف شالسيديك[1] Chalcidique

(1) شالسيديك : شبه جزيرة يونانية ، تتقدم في بحر ايجه وتشكل ثلاث أشباه ـ جزر .

جمجمة نياندرتالية ، لم تمس ، ولكن ، شأنها شأن جمجمة سيرسي ينقصها الفك الأسفل ؛ وليس هناك أية تفاصيل علمية حقاً . والأمر عينه بالنسبة لجمجمة طفل بك ـ دولاز Pech-de-l'Aze في الدوردوني Dordogne ، التي تُذكر دائماً والمحاطة بالشك : إذ وجدت بقايا وضيعة جداً لجمجمة طفل ، من دون أن تُلاحظ أية آثار لعظام أخرى . وعثر أيضاً في فرّاسي Ferrassie ، في منطقة البوغ Bugue في الدوردوني Dordogne ، على هيكل طفل من دون رأس ، ولكن من الأكيد أنه لم يتم تسجيل الظرف الأثري بوضوح لكي يُفكر حتى بمحاولة لايجاد تأويل .

أفكار حول عبادة الجماجم والفكوك

بالنتيجة ، توجد مستودعات للجماجم ، اثنان منها أكيدان، احدهما للعصر الموستريـاني Moustérien (جبل سيرسي Circé) والآخر للعصر المجدلي (ماس ـ دازيل Mas-d'Azil) ، ولا يسمح أي واحد منهما بأن نتوسع أكثر ، في العصر المجدلي ، تبين جمجمة ماس ـ دازيل والفك الأسفل المثقوب في مغارة الأخوة الثلاثة Trois-Frères ، تبين اهتمامات تخرج بوضوح عن كل سبب عرضي أو تقني . ولا يقدم المجدليون أكثر من ذلك ، كما أن الموستيريين Moustériens ، يقدمون أقل من ذلك بشكل محسوس : بين الأسباب الممكنة لوجود جمجمة منعزلة ، يبدو أن لإيداعها من قبل الانسان مكانة متميزة .

لقد جهدنا عن طريق الاحصاء بالبحث عن وسيلة لتدعيم أو لزعزعة الصرح الصغير جداً المخصص لعبادة الجماجم ، مبرهنين ، بالاستناد على الجردات المنشورة وعلى أبحاثنا ، قوام تواتر الأجزاء المهمة من هيكل الباليونتروب (ناس العصر القديم) في أوراسيا Eurasie وافريقيا ونيانتروب العصر الحجري القديم في أوروبا (صورة 4) . ولقد عزلت

http://al-maktabeh.com

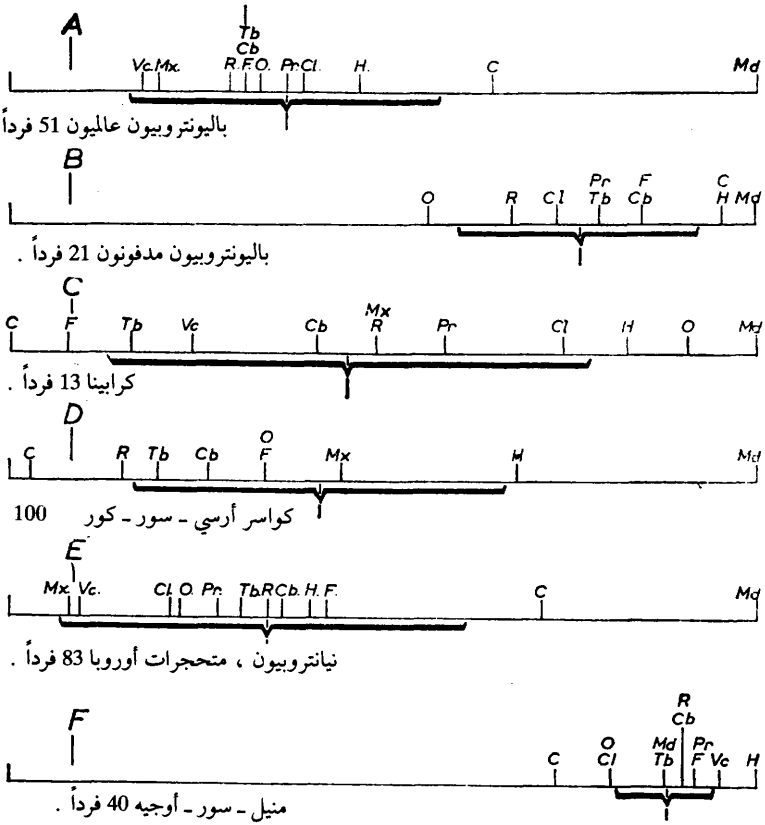

صورة رقم 4

جدول فروقات (الفروقات المعيارية ضمن الأقواس المعتنقة) حفظ مختلف أجزاء الهيكل .

C ـ جمجمة أو قحفة جمجمية .

Cb ـ عظم الزند .

Cl ـ ناحرة (عظمة ما بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر) .

F ـ عظم الفخذ .

H ـ عظم العضد .

الكمية الخاصة جداً لكرابينا Krapina في كرواتي Croitie لتأمين سلسلة تعتبر كبقايا فضلات وجبات اكل لحم البشر . بالمقارنة مع المجموع ، أقيمت الحسابات على كافة المحتوى الهيكلي لمغارة أضرحة اصطناعية في المارن Marne (منيل ـ سور ـ أوجيه Le Mesnil-sur-Oger) والتي تعود الى بداية العصر النحاسي . وأعدت أخيراً سلسلة من التسجيلات ، على بقايا كواسر الموستيرياني في مسكن مغارة إيان Hyène في ارسي ـ سور ـ كور Arcy-sur-Cure : يتعلق الأمر بعظام دب الكهوف والذئب والضبع ، جاثمة على أرض سكنها الانسان بين بقايا آكلات العشب .

يظهر هذا الجدول نقطة في غاية الأهمية : يبين الاحصاء انه عند الباليونتروبيين وعند النيانتروبيين على السواء يرتفع معدل حفظ الفك الأسفل والقحفة عن الفارق المعياري L'écart-type ، بينما ينخفض معدل حفظ عظام الفك المعزولة عن هذا الفارق . ولقد رأينا أن عظم الفك الأسفل عظم مقاوم بوجه خاص وان عظم الفك الأعلى هش بنوع خاص . ولا يمكن للقحفة أن تصمد إلا في شروط حماية خاصة ، بالطمر أو بالعزل في زاوية لا تطال ؛ وهي معرضة في أي شرط آخر الى العطب السريع لضياع المواد العضوية والى الاضمحلال بالانسحاق والانحلال .

هنا تبرز واقعة : يمكن تفسير ارتفاع عدد الفكوك السفلى بنسبة كبيرة

ـ Md ـ فك أسفل .
Mx ـ فكي .
O ـ عظم الكتف .
Pr ـ قصبة الساق الصغرى .
R ـ كعبرة .
Tb ـ عظمة الساق الكبرى .
Vc ـ فقريات عنقية .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

بأسباب فيزيائية - كيميائية . في منيل - سور - أوجيه Mesnil-sur-Oger ، وبعد أربعة آلاف سنة من الراحة المطلقة على سطح الأرض اضمحل كلياً ربع الجماجم (بقي جزء من الاسنان يبين انها (الجماجم) كانت موجودة عند الدفن) ، في كرابينا Krapina وبالنسبة لحيوانات ارسي d'Arcy المتوحشة ، صمد في أحسن الأحوال 2% من البقايا المتروكة على الأرض في أحد المساكن . علينا أن نقبل إذن بالحفظ الانتخابي للجماجم الانسانية في الشروط الوسطية للعصر الحجري القديم . ويعزا الجزء الأكبر من هذا الحفظ الانتخابي ، كما سيرى قريباً ، الى الدفن . ولكن الباب يبقى مشرعاً لأن يقصي انسان العصر الحجري القديم ، الجماجم لوحدها .

اكل لحم البشر

يُحتمل وجود اكل لحم البشر الديني في العصر الحجري القديم ، ولكنه أمر لا يمكن البرهنة عليه تماماً ، في حالة المواد الحاضرة . ومع ذلك ، لم يتكلم أي مؤلف عن دين العصر الحجري القديم من دون أن يأخذ موقفاً معه أو ضده بمعونة عدد كبير من الأمثلة العراقية (تابعة للعراقة) .

والثبات الذي نُكرِه فيه الوقائع مشوش حقاً ويُصعق للامانة التي يضاف فيها للحقيقة بأن يذكر ببساطة مَثَلُ المحارب الذي يأكل كبد عدوه ليحوز على قوته أو رجل الاسكيمو المسكين الذي يضطر الى أكل امرأته وأولاده ليخلص رب العائلة . ويصير انسان ما قبل التاريخ عندئذٍ انساناً حساساً ، حياً وواقعياً ، واقعية مستعارة تخفي واقعة ان انسان ما قبل التاريخ قد عاش ملايين السنين ، منذ رجل استراليا Australopithèque حتى المجدليين الذين كانوا بدون شك يقدمون اللياقات نفسها التي نقدمها نحن في عدة مجالات وبالأخص في مجال اكل لحم البشر .

يمكن لأكل لحم البشر ، بدون زيادة ولا تعليق ، أن يُبرهن عنه معنوياً .

فقد عثر في استوريتز Isturitz في البيرينه ـ السفلى Basses-pyrénées على قطعة من جانب جمجمة ، مكسور وموسوم بجروح سكين من الصوان ؛ وفي بردموست Predmost في مورافيا ، كان أحد الهياكل يحمل آثار تقطيع ؛ وفي تشولاتوفو Tchoulatovo في أوكرانيا Ukraine ، كانت هناك حزازات على جزء من عظمة الجبهة . ويمكن التفكير أن جزءي الجمجمة يحملان ببساطة آثار اقتطاع فروة الرأس ، وهذا شيء مهم بذاته ولكن يمكن أن لا يكون له أية علاقة بأكل لحوم البشر . ويبقى إذن مستند بردموست Predmost الوحيد ، الذي يُظهر انه ، مرة واحدة على الأقل ، قُطع انسان لغايات لا يمنع شيء من اعتبارها غذائية . وهذا هو كل الملف .

في عمل تأويلي للبقايا العظمية ، جهدنا بأن نحدد نصيب مختلف أجزاء الهيكل الحيواني في العمود الجيولوجي ، وهو شرط أساسي ولكن تهمله كل الدراسات حول ممارسات الصيد والتغذية ، كما يهمله التقييم السكاني . ينتج عن هذه التفحصات ان حظ الصمود الجيولوجي للبقايا العظمية للمواضيع التي تعرضت بكاملها للتفتيت العضوي يقل كثيراً عن حظ بقايا وجبات الأطعمة التي خُلِصت بعناية من اللحم واللب ، ويقل أيضاً عن حظ الأدوات العظمية التي جففت طويلاً وأزيل الشحم عنها بواسطة الاستعمال . قد يكون إذن لبقايا وجبات آكلي لحم البشر من بين بقايا الحيوانات المستهلكة حظ معقول في البقاء . وللأسف تقلل جداً الشروط الاحصائية من حظوظ العثور على تراكم وفير للبقايا الانسانية . لا شكّ في أنه استهلك من البشر أقل بكثير مما استهلك من الرنة أو الأحصنة ، لأنه يلزم الكثير من الحيوانات لتشكيل لحم كاسر كالانسان . والحال هذه ، واذا انطُلق من أفضل جزء حفظ (الاسنان) يلاحظ أنه وصل الينا 3% على الأقل من عظام الحيوانات ، إضافة الى أنه وصلنا على شكل كسرات دقيقة : ولا يمكن أن تحسب حظوظ صمود عظم انسان استهلك ، لأنها لا

يمكن أخذها بعين الإعتبار إحصائياً . وتؤكد الممارسة ذلك جيداً ، فقد عثرنا في مختلف أراضي مساكن العصر الحجري القديم الأعلى ، على أسنان عشرين فرداً مختلفين ولم نعثر على كسرة هيكلية واحدة .

إن وجود اسنان لهو ذو دلالة قيّمة ، ولا تقع الاسنان السليمة من دون أصحابها ويدل وجود مستندات تابعة لافراد من كل الأعمار على أن ذوات عديدة كانت تجثم على الأرض وان أجسادها قد التهمها الانسان أو الحيوانات الكاسرة أو البكتيريا : ولا يمكن أن يقال شيء آخر غير ذلك .

عندما يلائمنا الحظ ونعثر على بقايا عظمية ، يمكن المضي الى أبعد من ذلك قليلاً ، فللانسان طريقة خاصة في كسر العظام الطويلة لاستخراج لبها ، بينما يتبع الضبع والذئب طريقة مختلفة بعض الشيء . وللأسف فقد دار الكلام عن العادات الجنائزية أكثر من التفحص الدقيق للبقايا العظمية ، ولو لغايات الكشف التقني على الأقل . وأهم كمية هي التي توجد في كرابينا Krapina في متحف زغرب Zagreb . فقد عثر على أجزاء ثلاثة عشر فرداً على الأقل ، في قطع مكسورة ومتناثرة . وانطباع الطحن الغذائي مؤثر جداً واعتمد ومنذ البداية وباحتمال كبير ، طابع أكل لحم البشر . ومن المهم أن نلاحظ أن ميزات حفظ سلسلة كرابينا تختلف جداً عن السلسلات الأخرى (صورة C.4) وإذا كان الفك الأسفل ، بالأخص ، يأخذ اعلى نسبة ، فإن الجمجمة الكاملة غائبة كلياً ، مع أنه يتم العثور على كسرات كثيرة منها محطمة من دون أي رابط ممكن بينها . يحتل النقا (عظم العضد) الشديد التماسك مكانه الطبيعي من الحفظ الفيزيائي ـ الكيميائي ، بينما كانت عظام الفخذ والساق ، الأغنى باللب ، مسحوقة ولا يمكن التعرف إليها . وتحتل الكعبرة (الزند الأعلى) وعظم الزند ، وليست لها أهمية غذائية كبيرة ، مكانها الطبيعي القريب من المتوسط .

http://al-maktabeh.com

يضاف بالنتيجة الى عوامل الحفظ الطبيعية عامل آخر يبدو أنه يمكن توضيحه بالتفسير الغذائي . ومن المهم أيضاً المقارنة مع « المُفتَرسين » الآخرين . للعواشب هيكل عظمي يبتعد قوام حفظه بشكل ملحوظ عن حفظ هيكل الانسان ، بحيث أدى الى اختيار الكواسر (الدب والضبع والذئب) التي يحمل جزء منها آثار الاستهلاك البشري . وتظهر العلاقات بين موضع الفك الأسفل والنقا والفك الأعلى وعظم الزند وعظم الساق . ان الأسباب عينها قد لعبت دورها .

لم تحسم مسألة اكل لحم البشر تماماً ؛ وتظهر بعض الوقائع أنه وُجد هنا أو هناك بطريقة أكيدة ، والبرهنة على طابعه الديني مجرد وهم ، إلا إذا عثر ذات يوم على براهين مقنعة حقاً . وفيما بقي ، يبدو فقط (وهذا ليس بالقليل) ان عدداً من الأفراد قد افترسهم ، في كل أوقات العصر الحجري القديم ، الانسان أو الحيوان ، إن لم يكن الاثنان معاً على التوالي .

التجريد من اللحم

إن اطروحة الجسد الذي جرد من اللحم (مع او بدون اكل لحم البشر) ثم دُفن ، قد أكدها عدد من المؤلفين ، مع انها تقوم بالأخص لصالح معظمات الدولمن ، من دون أية برهنة مقنعة . سنة 1894 ، وفي عز النزاع المتعلق بتدين انسان ما قبل التاريخ وبوجود مقابره ، عثر القس تورنييه Tournier في مغارة هوتو Hoteaux (اين، Ain) على لحد طفل وسجل ان عظمتي الفخذ فيه كانتا معكوستين . وظهر هذا الواقع كدليل على ان الهيكل قد دفن بعد أن جرد من لحمه ، وان خطأ تشريحياً قد وقع خلال العملية . لقد كان القس تورنييه Tournier عرضة لوهم يمكن عذره : فبعملنا على إعادة تركيب اللحد ، استناداً الى الوثائق التي تركها ، في متحف بورغ ـ اون ـ برس Bourg-en-Bresse ، تولد لدينا اقتناع بأن

الجسد قد دفن وكان قسمه الأعلى على الظهر ، ولكن الحوض كان مقلوباً على جانبه والساقان نصف مطويتين ، بشكل أدى مع الانحطاط الى مرور عظمة الفخذ اليمنى الى الجهة اليسرى . وليس هناك أية واقعة لتجريد لحم جنائزي أو لمدفن ثانوي مؤكدة إيجابياً . وفي معنى أوسع ، تستتبع الوثائق التي بُحثت أعلاه (جماجم سيرسي Circé ، ماس ـ دازيل Mas-d'Azil ، هيكل بردموست Predmost) ان أجساماً أو أجزاء من الجسم قد جُردت بالفعل من اللحم أو انها أهملت حتى تجردت طبيعياً من اللحم .

اللحد

كان الدفن المتعمد والذي يمكن أن يكون طقسياً أكبر حجة في الصراع مع أو ضد دين العصر الحجري القديم . ومن الأكيد أن واقعة دفن جسم تشكل قرينة قوية لصالح دوام الحياة ما وراء الموت الظاهر . ولقد تناقش بعض المؤلفين ليقيموا التميز بين لحد من دون أفكار دينية ولحد يستتبع فكرة البقاء ، ويبقى هذا التميز شكلياً مع حالة الوثائق المتوفّرة . لنفترض أنه تم العثور بعد عشرة قرون على لحد مقاوم للاكليروس وملحد شرس من نهاية القرن التاسع عشر ، مع بقايا بزة نظامية موشاة وساعته الذهبية وحلى (بينها مخلب نمر) ، وعلى القبر تمثال نصفي له تدعمه باسترخاء صورتان انثويتان مجنحتان : حرّية التفكير والذرية La postérité . إذ يخشى أن يرى المستقبل فيه أحد أتباع عبادة آلهة أنثوية غير مشهورة ، بينما القس الذي لن يعثر إلا على هيكله من دون أية آثار لمتاع يبقى صامتاً حول معتقداته الدينية . لقد أدخل التشابك المستمر بين الظاهرات الرمزية والدين والسحر في إشكالات ديانة العصر الحجري القديم غموضاً لا يحل . يبدو أن القيام بعناء حفر لحد ليوضع فيه الجسد هو دليل على اهتمامات غير عملية بهذا الجسد ولكن بدون أية زيادة . وإذا جمعت أشياء الى الميت ، يمكن القبول ،

على الأقل ضمنياً انها تحتفظ باستعمال رمزي ، حتى تضمحل الآثار على الأقل . ويمكن التكلم عن ممارسات دينية مؤكدة . إذا رافق اللحد تزيين خاص ومتاع غني وطبقة من مسحوق الجأب وهبات غذائية ، ولكن على العكس ، لا يدل الإهمال الصرف والبسيط للجسم في الأدغال والبتر وغذاء الطيور والهرب المفاجيء من المسكن تاركين فيه الجسم لا يدل على غياب أفكار تتعلق بحياة أخرى .

بين الأفكار المنتشرة عادة حول ممارسات العصر الحجري القديم المآتمية ، تصمد قلة منها أمام الفحص النقدي ، في حين يُرى أن واقعة « الدفن » مؤكدة لدرجة لا يمكن معها قبول النقاش . فقد ادُعي أن رجال العصر الحجري القديم كانوا غالباً ما يدفنون أمواتهم في المغارات ، وتُبين مائة عام من التنقيب أن العكس فقط هو الصحيح . وبما أن حظوظ البقاء الجيولوجي لجسم مدفون في مغارة . في وسط كيميائي محايد غالباً ، تكون وفيرة ، فلا يجب العثور على دزينتين أو ثلاث من اللحود بل على الآلاف . ويبدو على العكس ان رجال العصر الحجري القديم كانوا يدفنون خارج المسكن ، في الطبيعة ، وعرضياً في المغاور التي لم تكن مشغولة حتى اللحظة . ولكن ، وبما أن التآكل قد احترم المغارات غالباً ، وصمدت مستودعاتها ، فإن أغلبية اللحود المعروفة قد وجدت فيها . وبما أن أجزاء الأجسام غير المدفونة كثيرة . كما رأينا أعلاه ، فإن اللحود كانت تتم في المناسبات .

إن الشهادات التي تُذكر لدعم وجود المعتقدات ضعيفة جداً . وغالباً ما عثر على الأجسام وهي مطوية ، وهذا ما فسره البعض كدلالة على الخوف من الميت الذي يطوى ويربط ليُؤمن شره . وفسّره البعض الآخر كدليل على أن الميت المطوى في وضعية جنينية كان يوضع في بطن الأرض بانتظار

ولادة جديدة . وعندما ترى المستندات المحددة التي اعتمد عليها لتدعيم هذه الافتراضات ، يمكن عندها العثور أو الدفاع عن عشرين تفسيراً آخر . وتستعمل ملاحظتان للموستيرياني ، ملاحظة لافراسيLa Ferrassie وملاحظة لاكينا La Quina . كانت الأجسام مطوية بشكل غير محدد ، شأنها شأن الناس النائمين أو المتروكين على الأرضَ . ولا يعرف عن الحالات الأخرى الا مراجعات مبهمة ولا تستند على أية وثيقة ، ما عدا « لحد » sépulture الموستيه Moustier الذي يُعرف أنه قد غش بشكل مشين . ويعرف العصر الحجري القديم الأعلى كل الوضعيات ، من التمدد على الظهر حتى الالتواء الاجباري ، اقتراب الركبتين من الذقن ، وإذا قبل وجود عادات محلية ، فإنه لا يمكن أن يستخرج من الوقائع أي تفسير إجمالي .

ويبدو في بعض الحالات ، كما في اللحد المجدلي في سان ـ جرمان ـ لا ريفييـر (جيرونـد) (St . Germain - La - Rivière , Gironde) ان صفائح من الحجر كانت قد وضعت قرب رأس لحمايته . وحدثت نفس المعاينة للقبور الأورينياسية في سوليتري Solutré ، ولكن في شروط مريبة . وماذا نقول أيضاً في وجود رماد أو موقد فوق أحد القبور ، هل هو « لتدفئة الجثة » كما يقول أحد المؤلفين ؟ ومسكن في المغارة ليس الا تراكب لأسرّة من الرماد تقطعها مراحل من الترك : ولماذا لا يتطابق على مسافة قرون من الزمان ، موقد مع لحد منسي ، بينما توجد المواقد في كل مكان ؛ ومن الاعتباط أن يرى في ذلك شهادة على احتفالات تذكارية ، وهو بعيد في النهاية عن الأمانة العلمية .

والأمر نفسه بالنسبة للهبات الغذائية والأشياء المفترضة . والمواقع ملأى

بالعظام وبالصوان ، ولا يمكن الكلام عن مستودع متعمد إلا إذا وضعت كل قطعة اثرية في مكانها في المخطط وصورت مساحه الموقع بكاملها . وسيُرى عندها ، ما إذا كان للعظام والأدوات المتشابكة على كل المساحة ، ميزات لوحظت بقرب اللحد . عندها يجب إزالة الأخطاء التي ترجع الى حفر الحفرة نفسها أو الى ردمها ، ويؤول ما يبقى مع التحفظات الضرورية . وتبتعد الوقائع الباقية حالياً في الملف ، عن إرضاء الحد الأدنى لهذا التطلّب والدقة العلميين .

لقد نُشر الاكتشاف المذهل للجمجمة الأنثوية في ماس ـ دازيل Mas-d'Azil بتوثيق ممتاز : صورة الجمجمة على رأس حويّة من البقايا ، مضطجعة على جنبها قرب قرن بيسون لا يختلف اطلاقاً عن البقايا الأخرى ، إلا في حجمه . وقد صيغت اسطورة المستند كالتالي : « . . . كان وجهها غير المرئي ينظر باتجاه قرن البيسون » . ويُحكى في النص عن جمجمة « فتاة شابة » ؛ ولم تترك صفة « فتاة شابة » إلا آثاراً قليلة على الجمجمة ، ولكنها خلقت حول هذا الأثر هالة من النضارة الغامضة . وتمثل أخيراً ، صورة مذهلة ، الجمجمة مع عينيها المستعارتين ، كما كان يجب أن تكون في الواقع : تقول الاسطورة : « لقد أعيد وضعها على الفك الأسفل (لبقرة) وعلى قرن الرنة التي كانت ترتاح عليها » . ليس في هذه الملاحظات ما يتجاوز المعاينة ، ولم يشك كاتب هذه الملاحظات ، وقد كان من علماء ما قبل التاريخ الأكثر كفاءة والأكثر دقة من الذين عرضناهم ، لم يشك بالباب الذي كان يفتحه للمخيلة . ولا يبقى أقل من أن جمجمة فتاة شابة موضوعة على فك وعلى قرن رنّة وتنظر باتجاه قرن بيسون ستؤول بدون شك باتجاه وهمي ، بينما يتعلق الأمر بالواقع بكومة من البقايا المطبخية يجثم عليها رفات آدمية قد يكون في غير محله ووظيفته .

http://al-maktabeh.com

إشكال اللحود الباليونتروبية

يبدو مقبولاً ان انسان نياندرتال كان يدفن موتاه في بعض المرات على الأقل . كان الجسد في لاشابل ـ او ـ سان Le chapelle-aux-Saints يبدو في الظاهر أنه يرقد في حفرة رسمها المؤلفون مقطعياً بدقة . وكان يمكن العثور في لافراسي La Ferrassie على عدة قبور بشكل تلة ، ونشرت للاسف بطريقة ناقصة . وفي تشيك ـ تاك Techik-Tach ، صار لحد الطفل المحاط بذبائح خمسة وعول كلاسيكياً ؛ وهو أبعد من أن يكون قد نشر بطريقة لاعيب فيها . والعلاقة بين الوعول ولحد الطفل غير معروفة جيداً ، كما أن لحد الطفل كان مشوشاً جداً . وكان اللحد ، المطمور تحت ركام من الحجارة ، يرقد على طبقة من مادة نباتية عضوية بيَّن تحليل الصواح المتحجر انها بقايا أزهار عديدة ربما كانت قد وضعت فوق الجسم قبل الردم . ويشهد بقاء الصواح وتجمعه على إدخال الازهار وليس على صواح حملته الريح أو الحيوانات ، وعثر حديثاً في قفصه Qafseh في فلسطين ، على لحد من العصر الحجري القديم المتوسط يحتوي على فرد مدفون ترقد على يديه قرون أيل . وتؤكد بثبات الأعمال التي تمت خلال هذه السنوات العشر ، واقع ان النياندرتاليين أو أول ممثلي الأشكال القريبة من الانسان العالم L'homo sapiens ، قد مارسوا الدفن بأشكال معقدة أحياناً . وتبتعد شهادات التنقيب القديمة عن الدقة . ففي لافراسي La Ferrassie ، يُفترض أن بعض أدوات الصوان الجميلة جداً والتي عثر عليها على إحدى التلال والتي يمكن انها كانت مقابر أطفال ، يُفترض أنها تشكل مستودعاً جنائزياً . وهذا معقول ، ولكن للاسف ، لا تبرهن عليه الرسمة السريعة المبهمة التي ترافق هذا التأكيد .

لا يزال ينقص لإشكال لحود ما قبل التاريخ توضيح كثير ؛ وتقع المسؤولية كلها على عاتق البحاثين الذين لم يستطيعوا أن يقاوموا رغبة نبش « احفور حياتهم » بسرعة ، كما ترجع بصورة عامة الى طرق تنقيب الطبقات المجرمة التي تستعيد الوثائق الجاهزة وُفق تسلسل تاريخي ، ضاربة موعداً للمراقبة في عمق أدراج المختبر .

ويمكن بالإضافة إلى ذلك التأسف لأن جردة بسيطة لبقايا الباليونتروب تظهر كم من المرات قد مُرّ بجانب الواقع . ويظهر الاحصاء العام أن البقايا موزعة في حدود الفرق المعياري ، وهذا ما يدل على حفظ متساوٍ لكل أعضاء الهيكل ، ما عدا القحفة والفك الأسفل المحفوظين جيداً بوجه خاص . ولقد سبق استغلال هذا التفصيل أعلاه ، وهو يبين أن عدداً مرتفعاً جداً من الجماجم الآدمية موجود لأنه تمت حمايته بطريقة أو بأخرى . ومما يدهش أيضاً ، أنه ضمن خمسين باليونتروب جمعوا في العالم القديم ، يحمل عشرون منهم عناصر جسدية متنوعة . بعبارة أخرى ، كان نصف الجماجم أو القطع الجمجمية مرتبطاً بكل بقايا الهيكل أو بجزء منه ، وهذا ما لم يعرفه أي نوع آخر ، حتى دببة الكهوف ، ومع ذلك لم يفكر أحد بإظهار هذه الملاحظة التي تدافع بطريقة مؤثرة عن الممارسات المآتمية . وما يبدو بوضوح في التوزيع هو الحفظ العالي للهيكل ، بالمقارنة مع مقبرة العصر الوسيط Moyen Age العالي مثلاً أو مع المغارة الجنائزية في منيل ـ سور ـ أوجيه Mesnil-sur-Oger . وتظهر المقارنة مع المغارة الأخيرة ، أن حفظ القحفات يرتبط بالحماية بواسطة الطمر . ويبدو إذن بالنسبة للباليونتروبين » أنه يمكن توضيح ظرفين جنائزيين : « الافتراس » و« الدفن » . يتعلق الأول بالقطع العديدة المتناثرة التي لا يمكننا إلّا المقارنة بينها وبين المعاملة التي تعرضت لها عظام الحيوانات التي افترسها الانسان أو

افترستها الحيوانات الشقر . وبالتأكيد يستتبع الظرف الثاني أن الأجسام التي عثر عليها كانت محمية إما بأسباب طبيعية كالانهيار وإما بالدفن أو الطمر تحت كدسة من التراب والحصى . وبما أنه يضاف الى هذا التأكيد الاحصائي بعض الوقائع الايجابية ، وحيث يتركنا النياندرتاليون نستشف امكانية اهتمامات غير تقنية (شبه كرويات ، جمجمة سيرسي Circé ، جأب ، اشياء غريبة) يجب أن يميل الميزان إيجابياً نحو ممارسات مآتمية حقة ، ممارسات لا يمكن تقديم أي شيء دقيق عنها .

لحود العصر الحجري القديم الأعلى

نحن هنا على أرض أكثر تماسكاً ، ليس لأن التفحصات كانت دائماً أفضل ولكن تصير بعض التفاصيل مع الانسان العالم ، L'homo sapiens ، باهرة لدرجة لا يمكن معها تجاهلها . هناك لحد نمطي للعصر الحجري القديم الأعلى : فهو تجويف على شكل حفرة ويرش الميت بالجأب الأحمر . ولقد لوحظ هذا الواقع من بريطانيا حتى الاتحاد السوفياتي ، وفي سبع عشرة حالة بين سبع وعشرين كانت موضوع معاينة دقيقة . وفي بعض الحالات ، وعلى الأخص في مورافيا Moravie ، كان الرأس لوحده يحمل آثار الجأب الأحمر . ورغم ثبات هذا الواقع ، وأهميته على ما أعتقد ، فلا يجب أن نتناسى أن بعض طبقات الأرض كانت مشبعة بالجأب لدرجة أن كل البقايا التي تحتويها كانت تحمل آثاره . وكان تلوين قعر الحفرة هو ما يفاجيء المؤلفين في الغالب ، لأنه كان يختلف عن الأرض المحيطة به . ولكنه يجب أن يقارن مع تلوين الأرض التي حفرت الحفرة فيها .

كانت الأجسام في ستّ عشرة حالة تحمل أشياء للزينة الشخصية ، شبكة أصداف ، أنواط ، عقود . وتظهر شهادات التنقيب أن أشياء الزينة كانت متعددة ، ولا يجب انتظار دلالة خاصة لكون الجسم « مزيناً » : إذ

	ممدّدة	على شكل ديك بندقية	ملتوية بالقوة	جأب	حلى	أثاث	بناءات
Arène Candide	–	×	–	×[1]	×	×	
	×	–	–	×[2]	–	?	طبقة من الحجارة ؟
	×	–	–	×	×	–	
Barma grande (Grimaldi)	–	×	–	×	×	?	
	–	×	–	×	×	–	
	×	–	–	–	×	–	3 صفائح في الأعلى
Baousso do Torre (Grimaldi)	×	–	–	–	×	–	
	×	–	–	×	×	–	
Brno I	–	–	–	×	×	–	
Brno II	–	×	–	×	–	–	
Cavillon (Grimaldi)	–	×	–	×[3]	×	?	
Chancelade	–	–	×	×	–	–	
Dolni vestonice (Moravie)	–	–	×	×[2]	–	–	
	×	–	–	–	×	–	
	×	–	–	–	×	–	
مغارة الأولاد (غريمالدي)	×	–	–	–	×	–	5بلاطات
	–	×	–	×[4]	×	–	صندوق على الرأس
	–	–	×	–	–	–	
Entzheim	–	–	–	×	×	–	
Hoteaux	–	×	–	×	–	–	
Kostienki II (Russie)	–	–	جالس	–	–	–	
Laugerie basse	–	–	×	–	×	–	
Obercassel	–	–	–	×	–	–	
Paviland	–	–	–	×	×	–	غطاء عظم كتف الماموث
Pavlov (Moravie)	–	–	×	–	–	–	غطاء الصفائح
Predmost (Moravie)	–	–	×	–	–	–	
Saint-Germain-la-Rivière	–	–	×	×	–	–	صندوق على الجسد المطوي

1. طبقة جأب
2. على الجمجمة وحدها
3. جأب موضوع في ثلم ينطلق من الوجه على 18 سم
4. على الهيكل الذكر

اننا نجهل ما إذا كانت مزينة أكثر منها في حياتها . على أنه يجب تسجيل واقعة ، وهي ان المجوهرات لم تكن تنزع بالضرورة عن الجثة ، وهذا ما يدل على الأقل على الاشمئزاز من سلب الميت .

أما باقي المعلومات فإنها غير منظمة . وتختلف وضعية الميت من لحد لآخر : كانت الأجسام في ست حالات في التواء قسري ، وتصل الركبتان الى الذقن ، وفي حالة واحدة كان الجسم جالساً في التواء قسري (كوستيانكي II ، Kostienki II) ، وفي سبع حالات على شكل ديك بندقية يختلف عرضه ، وفي ثماني حالات في استلقاء ظهري . ومن الطبيعي أن تختلف العادات على مدى عشرين ألف سنة وفي أوروبا كلها : ففي بردموست Predmost ، كانت الأجسام الأربعة عشر مغطاة بصفائح كلسية وبعظام أكتاف الماموث ؛ وفي غريمالدي Grimaldi وسان ـ جرمان ـ لا ـ ريفيير St-Germain-La-Rivière ، كانت الأجسام محمية كلياً أو جزئياً بنوع من تجاويف كتل منسقة . ولم تؤكد أية حالة عن بناء حقيقي للأقبية ، ولكن كانت بعض البلاطات توضع أحياناً على الطرق .

إن إشكال المتاع المآتمي هام جداً ، وإذا صار من المؤكد أن الموتى كانوا يُدفنون مع أغراضهم الشخصية ، فإن ذلك يترك مجالاً للتفكير بأنهم كانوا يُحضرون لعالم مختلف يتابعون فيه نشاطهم . يمكن للاشمئزاز البسيط أن يُفسّر ترك أشياء المتوفي على القبر ، ولكن ادخال أشياء في القبر كان يتجاوز بالضرورة هذا الشعور . ومن المؤكد أن بعض المؤلفين قد ذكر أشياء موضوعة قرب الهيكل العظمي ، ولكن إذا كانت أشياء الزينة الشخصية لا تدع مجالاً للشك ، فإن المتاع المآتمي يبقى عرضة له . لقد رأينا فيما سبق ، أن الأرض التي يدفن فيها الجسم مليئة بعظام الحيوانات وبالأدوات المستعملة . وقد يحدث بالتأكيد أن يعثر البحاث على بقايا عند التنقيب في ما

http://al-maktabeh.com

تحتويه الحفرة ؛ ولقد حصل للأسف أن وضعت هذه البقايا على جنب وأعيدت الى عمق الحفرة بشكل أو بآخر ما ان انتهى صقل الحفرة . ولقد أكدت التنقيبات الحديثة أهمية المتاع المآتمي : هيكل آرن كانديد Arene Candide في إيطاليا ، ترافقه أربع من « عصي الامارة » ، راشدون وأطفال سونجير Soungir ، في روسيا ، ترافقهم مئات اللآلىء من عاج الماموث .

تترك الصرامة التي أدخلت ، رغم كل شيء ، على الأبحاث مجالاً لتوضيح اشكال تجهيز اللحود ، بالنسبة الى العصر الحجري الأعلى والمتوسط وحتى القديم ، لأنه ليس الا مسألة في تقنية البحث . ولا يمكن التفكير بدون تأسف بما كان بإمكان المخططات حتى المختصرة منها ، وتسجيلات الصور حتى الناقصة للحود الفراسي La Ferassie وكرابينا Krapina أو بردموست Predmost أن تقدمه .

تقييم مؤقت حول عبادة عظام الموتى والممارسات الجنائزية

إن مجموع الوقائع الايجابية ضئيل جداً ، ولكنه ليس صفراً . وتشكل ، عند الموستيريين ، العظام المتروكة في ركام شبه دائري ، وفي العصر الحجري القديم الأعلى ، وحفر عظام الحيوانات في أوروبا الشرقية ، وعظام الماموث الملوثة وذبائح الأرخص أو البيسون تشكل أول كمية من الوقائع التي يصعب تأويلها ، ولكنها تفتح طاقة صغيرة على ممارسات يمكن أن تصطبغ بالدين .

ويمكن أن تتجاوز أسنان الحيوانات المعدة للتعليق ، والتي عرفت فقط في العصر الحجري القديم الأعلى ، الاهتمامات الجمالية البسيطة فقط ، إذ يبدو من المعقول أن تكون قد ارتبطت بقيمة رمزية بقيمتها كحلية . هذا كل ما يمكن أن يقال ، من غير تجاوز للوقائع ، حول عبادة عظام الحيوانات ،

وكل التركيبة الواسعة حول عبادة دببة الكهوف يجب أن تـراجـع بكاملها .

ولم يبق بالنسبة للعظام الآدمية أي شيء يذكر ، ما عدا سنين ـ نوطين وقطعة من الفك الأسفل للاستعمال عينه ، وجمجمة ماس ـ دازيل Mas-d'Azil مع عينيها المستعارتين،« الكؤوس » الجمجمية . ولهذه المستندات ، التي تعود جميعها الى العصر الحجري القديم الأعلى ، قيمة ايجابية كبرى لصالح الفائدة الدينية المتعلقة بالأسلاب الآدمية . وجمجمة سيرسي Circé هي المستند الوحيد من عصرها الذي يقدم لنا جمجمة كانت موضوع معاملات خاصة .

ولا يمكن البرهنة على اكل لحوم البشر الطقسي في كل مراحل العصر الحجري القديم . وتوحي المستندات فقط بأن كثيراً من الناس قد ترك بدون لحد بعضهم افترسه اقرانهم والبعض الآخر افترسته الحيوانات .

ومن الأكيد عملياً ، بالنسبة للعصر الحجري القديم الأوسط ، انه كان هناك طمر ، مع احتمال وجود مستودع . ويتأكد بالنسبة للعصر الحجري القديم الأعلى وجود اللحد مع استعمال الجأب أيضاً ، ولكن بدقة أقل ، واحتفاظ الميت بزينته الخاصة .

هنا يجب أن يتصدر فصل المقارنات العرقية الطويل الذي يبرز عادة (كلاسيكياً) في المؤلفات المخصصة لديانة ما قبل التاريخ . وسيُعفى القارىء من ذلك ، لأن الأمر لا يتعلق بأن نريق صفحات مليئة من الحاضر لنلون الماضي ، بل ان نقف عند وقائع الآثار : فلم يعد هذا الدين مع اتباعه الا هيكلاً .

مكتبة المهتدين

الفصل الثالث

أشياء وطقوس

إن الكائن الذكي الذي تخيلناه في بداية هذا المؤلف وقد هبط من كـون آخر يفهم أهل الأرض من دون أن يتواصل معهم سيكـون في نفس ظرف المؤلف أمام هذا الفصـل . لقد أدخـل أسلافنـا بعض الترتيب في إسقـاط الاشياء أو الآثار من خلال أمثلة عرقية . فما ان تصير قطعة قرن رنة « عصا الامارة » حتى يتوضح كل شيء ، ويشرق شيوخ نبلاء من الضباب ليترأسوا عشائر الصيادين . وما ان تصير بصمات أقدام أطفال على صلصال صخرة شهادة على « طقس المساراة » حتى يصبح بالامكان استهـلال فصل حـول « المساراة » ونحيي مراهقـين مروّعـين يسمعون شخـير رومبات تحت قبب ترشح وساحر ذو قرون يرسم فراساً حبـلى ليضاعف القـطعان . وإذا أقلع عن هذه الوسيلة السهلة في فهم العصور الحجرية القديمة لا يبقى إلا قطعة من قرن رنة وآثار خطوات مفتوحة للتفسير أمام آلاف الطرق ، ولكنها جميعاً موسومة بإشارة ممنوع المرور البيضاء .

ولا يشتمل النسق المتبع في هذا الكتاب عـلى تصنيف الأفكار والأفعـال (التي يمكنها فقط أن تشرح الدين) ولكنه يشتمل على تجميع الشواهـد في فئـات ، لأن بعضها جمـاجم والآخر هيـاكل وغيـرها أصبـاغ ومتحجـرات وكرات وبصمات . ويشبه ذلك تقديم تقرير عن مسرحية من خلال جردة لمجرد الثياب ، ويتضمن ذلك المكنسة وفأس الإطفائي . ولن نتهم بأننا لم

نكن على دراية ، فدين ما قبل التاريخ هو حجرة ملابس مهدمة ومن الأجدى أن نضع مرة لائحة نقدية بها ربما لكي نهدي للآخرين امكانية أن يكتبوا مسرحيات جديدة .

الأصباغ

لقد قيل الكثير عن الأصباغ في العصر الحجري القديم الأعلى ، وبالأخص الجأب : المادة الأولى في تلوين الجدران ، واعتبر أنه قد استخدم أيضاً في تلوين القبور ، وأجسام الأحياء . وانه رمز للدم بشكل عام وبالتالي للحياة ، وعلى الأخص الموت ، وهذه الاستنتاجات معقولة جداً ، لأنها تعتمد على معاينات أثرية خالصة ، باستثناء ما يخص تلوين الاجسام . واستخدمت في بعض الأحيان كأساسات لبناءات مذهلة ، ولكن يبقى ملف الأصباغ بالأحرى غير مستثمر بما فيه الكفاية .

والجأب ، مع المتحجرات ، هو أول شاهد نملكه عن العادات السابقة على العصر الحجري القديم الأعلى ، والتي تواصلت في كل المرحلة الأخيرة . وبالواقع ، وجدت أول القطع في حوالي نهاية العصر الموستريانى ، وهي لا تقبل أي تفسير حول استعمالها ، لأنه لم تعرف أية رسوم نياندرتالية ولا أي لحد من الجأب من تلك المرحلة .

لقد عرف الرجال ، منذ بداية العصر الحجري القديم الأعلى ، البحث عن الجأب الحديدي وتحضيره ، بشيّه ، في مختلف فروقاته من الأصغر حتى البنفسجي . فيعثر إذاً وحتى العصر المجدلي على الجأب في شكل مسحوق وأقلام ورقائق ، وعلى بيوكسيد المنغنيز في شكل مسحوقأو كتل مبشورة . وأغلب طبقات العصر الحجري القديم الأعلى مشبعة بالجأب لدرجة أنها صارت بنفسجية في بعض الأحيان ومن الأكيد أنه خارج استعماله في تلوين الكهوف ورشه على الموتى ، كان الجأب مادة رائجة الاستعمال . وللأسف

تتوقف هنا حدود المعرفة الموضوعية ، لأنه تنقص التفاصيل حول استعمالاته العادية . وإذا تُخيل ان الرجال كانوا يرسمون على أجسامهم بالأحمر ويصبغون الجلود ويكلسون الرماح والأدوات العادية ، فيمكن تصور ان مساكنهم تنتهي بأن تأخذ صبغة حمراء . في بانسفون Pincevent ، في سان اي- مارن Seine-et-Marne حيث عثر على مواقع عديدة للخيم ، يبدو أن كثافة التلوين بالجأب تعود الى كثافة أو إلى مدة السكن ، وهذا ما يحمل على الاعتقاد أن الجأب كان يلعب دوراً ثابتاً إما في التقنيات واما في الدين واما ، وهذا ما يبدو معقولاً ، في الاثنين معاً في الوقت عينه . ولا تُبرز الرسومات الجدرانية بوضوح ما إذا كان الجأب وقفاً بشكل خاص على كِلم الحيوانات مثلاً أو على إشارات الجماعة α أو الجماعة β (أنظر فقرة الصور الجدرانية في الفصل الرابع) أو ما إذا كانت إحدى الإشارات المزدوجة αβ حمراء والأخرى سوداء . أو يعثر على كل هذه الحالات بدون أي تواتر حاسم . فتشير كرات الجأب المعجونة بشظايا الصوان والتي عثر عليها في ارسي - سور - كور Arcy-sur-Cure (أنظر فقرة الطقوس) ، الى استعمال خاص للجأب دون أن توضح معناه . ويعرف بعض التكليس بالجأب على مساحات عريضة (بعض القبب في الكهوف كما في غارغاس Gargas أو على سقف بكامله كما في سان - مارسل Saint-Marcel في الاندر Indre) . وفي اللحود ، كان للجأب المنثور على الأجسام دلالة أكيدة ؛ فعندما نجد في غريمالدي Grimaldi ، في لحود النغروييد Negroîde أن الذكر فقط كان ملوناً ، فإن ذلك يمكن أن يناظر على السواء تمييزاً بين الجنسين أو أي سبب آخر عرضي ، وفي كل حال هناك لحود انثوية ملونة معروفة ، وعندما تكون الجمجمة ملونة لوحدها ، فإن ذلك يدل بتفاهة على أن الرأس قد حصل على الجأب القليل المتوفر ، ولكنه يمكن أن يرجع الى معنى محدد للجأب في علاقته مع العدة الدماغية ، والحالة الوحيدة الغريبة جداً ، هي

http://al-maktabeh.com

حالة لحد كافيون Cavillon في غريمالدي Grimaldi : اخدود بطول 18 سم ، مملوء بالجأب ، وينطلق من الأنف والفم باتجاه الخارج . من هنا الى مماثلة الجأب مع النفس الحيوي أو الفعل ليس هناك إلا خطوة واحدة ، ويغري بذلك أكثر أن لحيوانات كثيرة ، من الفن المجدلي ، خطوطاً تنطلق من خطمها وفُهمت على أنها تصوير للنفس . كان لأهم رمز للعصر الحجري القديم الأعلى ، أن يماثل ، بلونه ، الدم والحياة ، ولكن من الصعب جداً أن يقال أكثر من ذلك .

المتحجرات والصدف

إن عدد الظاهرات ، في العصر الموستيرياني ، التي يمكن أن تتعلق بالدين ضئيل جداً ، ويشكل الى الآن دفن الموتى ، وركام شبه الكرات ووجود الجأب الوقائع الإيجابية الوحيدة . وفي مغارة إيان Hyène في أرسي - سور - كور Arcy-sur-Cure ، في نفس مستوى السكن الذي يناظر فيه ركام شبه الكرويات الموستريان الذي سبق تقدمه ، عثرنا على مستودع صغير مؤلف من متحجرين كبيرين ، أحد معديات الأرجل ومدقة شبه كروية ، ومن كتلتين من بوريطس الحديد على شكل كرات مجمعة (صورة رقم A.B.C.5) . ويفرض شكل هذه الأشياء ومصدرها انها قد جُلبت عن عمد . وتشكل هذه القطع اذن ، حسب معرفتنا ، أول شهادة للأهمية التي كان الإنسان يحيط بها الأشكال الغريبة ، وهي بنوع ما مقدمة بعيدة للفن الصوري ، ولكنها أكثر من ذلك أيضاً فهي أول تمظهر للشعور الغامض بمواجهة الأشكال التي تلتقي في الطبيعة والتي تخرج من بطن الحجر أو الأرض بنوع خاص .

ويمر هذا الشعور ، الذي ظهر عند إنسان النياندرتال ، بجميع الأزمنة الانسانية ، ولقد ارتبط باستمرار بأفكار علاجية أو بالسحر بمعناه الواسع

ويمكن وضع مؤلَّف كامل من جردة للمتحجرات التي زينت ، في كل مناطق العالم ، جعبة الشماني أو حانوت العطار . ويشهد العصر الوسيط وعصر النهضة عندنا أن الاهتمام بأشكال المتحجرات يصطبغ بهموم ، صارت في القرن XVIII علمية ، دون أن تفقد شيئاً من علاقاتها بطبقات النفسية العميقة، وبالنتيجة فإن عالم ما قبل التاريخ هو الوريث المباشر لحشرية الموستريان . وهل كانت البنية الفوقية الدينية لهذا الأخير قد تشكلت ؟ ومن الأكيد تقريباً أن الشعور الجمالي كان ينفذ من خلال الاهتمام الذي يحمل على الأشكال غير العادية ومن المحتمل أن هذا الشعور لم يكن ليتخلص بوضوح من رموز طبيعة أخرى لا نستطيع أن نحللها استرجاعياً ، ولكنها تلامس المجال الديني .

منذ بداية العصر الحجري القديم الأعلى يعثر على المتحجرات والصدف بطريقة شبه ثابتة وتتعلق تارة بمتحجرات من العهد الأول أو الثاني (صورة D.5) ، شأن ثلاثيات فصوص ارسي - سور - كور أو المتحجرات الصغيرة من العصر الثاني التي يعثر عليها في كل مكان تقريباً ، وتارة تتعلق بأصداف ثلاثية أو بأصداف بحرية معاصرة للعصر الحجري القديم الأعلى . ويصعب أحياناً التمييز بين هذه الأصداف الأخيرة والمتحجرات . ومن الأكيد ان رجال العصر الحجري القديم الأعلى قد بحثوا عن الأصداف البحرية عند الشواطىء وانهم كانوا يعرفون كيف يستبدلونها بمتحجرات مستخرجة من رواسب الثلاثيات ، بشكل انه يعثر على أصداف بحرية حتى في أمكنة بعيدة عن البحر . من المهم أن نعرف إلى أي مدى كانت هذه الأصداف متداولة ، لأنه هكذا تتكون فكرة عن أهمية التنقلات الانسانية ، ولقد اعتقد في بعض الأحيان أنه أمكن التعرف على قطع صادرة عن أماكن بعيدة جداً ، شأن

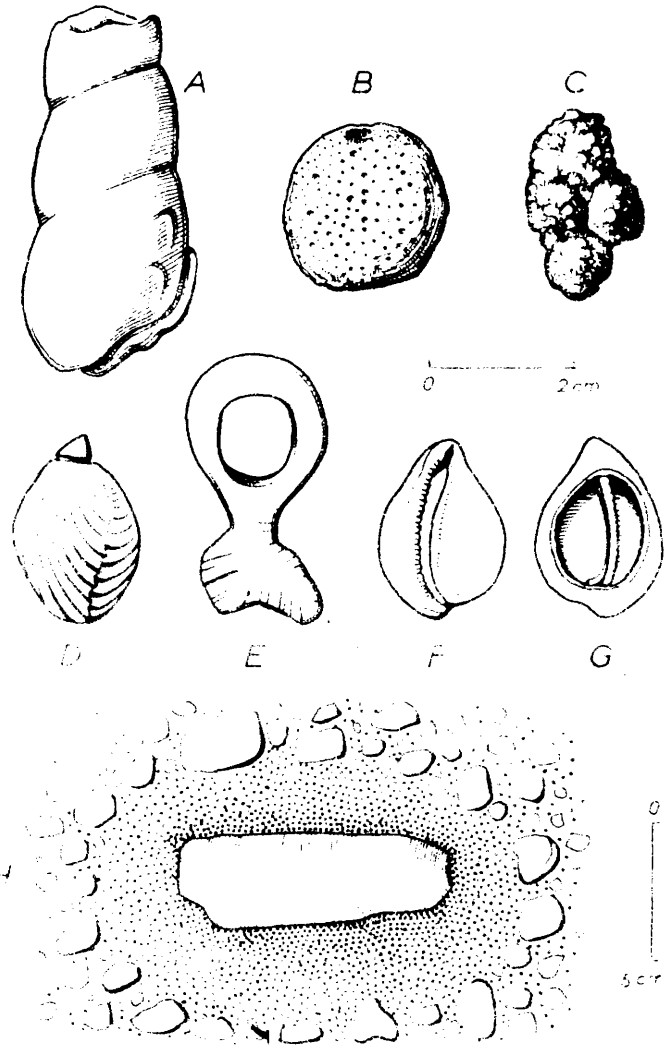

صورة رقم 5

ارسي - سور - كور (يون)

ثلاثيات فصوص أرسي Arcy ، التي يمكن أن تكون قد جاءت من بوهيميا Bohême أو صدفة مغارات غريمالدي Grimaldi التي لم تكن توجد إلا في المحيط الهندي . ويجب أخذ هذه المآثر التجارية أو الترحالية بكثير من الحذر ؛ فلا تكاد ثلاثيات فصوص أوتون d'Autun تكون على كلم من ارسي ـ سور ـ كور Arcy-sur-Cure ، وتشير أصداف الطبقات الثلاثية ، التي استغلها رجال ما قبل التاريخ ، إلى أن مناخ المناطق الفرنسية كان دافئاً أكثر بكثير من مناخها الحالي ، بشكل استطاع معه رجال العصر الحجري القديم أن يجمعوا عندهم أصدافاً لم تعد موجودة حتى في زمنهم إلا في المحيط الهندي .

ويمكن تكوين فكرة عن مصدر أصداف بعض الطبقات ؛ إذ كان مجدليو اردن Ardenne يذهبون حتى نواحي الشمبانيا Champagne للتموّن بالأصداف ،وغرافيتيو Gravettiens ارسي ـ سور ـ كور يصعدون حتى سونس Sens على الأقل ليبحثوا عن الأصداف المتحجرة ؛ وبالنسبة للأنواع المعاصرة ، يعتبر أن جزءاً من أصداف الدوردوني Dordogne يأتي من المحيط ، وان المتحجرات تأتي من بواتو Poitou أو توران Touraine ؛ ويبدو أن الأصداف في ماس ـ دازيل Mas-d'Azil ، في منتصف الطريق بين المحيط والبحر المتوسط ، تأتي من الاتجاهين ، وبالنتيجة ، يبدو أن

A ـ رخويات كلسية من العصر الثاني .

B ـ مدخة من نفس المصدر .

C ـ كتلة من المدخات

D ـ صغيرة خرطوم مشغولة للتعليق .

C ـ نوط أورينياسي .

F-G ـ سبرية غرافيتية .

H ـ شفرة موضوعة على كومة من الجأب .

التموين في أغلب الأحيان ، كان يتم على بعد 100 الى 200 كلم ، وهذا ما يتوافق بشكل جيد مع المعطيات الحالية حول وجود جماعات إقليمية ثابتة نسبياً داخل المجموع الثقافي الكبير الذي كان يشكله الغرب في العصر الحجري القديم .

ولا تعمل هذه البيّنة الا على أن تدهشنا أكثر لوحدة التقاليد التي تقوم على البحث عن متحجرات حيث تنقص نظائرها الحية . ويُعرف من عدة اكتشافات ان الأصداف كانت تشكل عناصر للزينة ، فتثبت على التسريحة أو في عقود وحلقات للأذرع والسيقان . وخارج قيمتها الجمالية وندرتها لا نملك إلا إشارات قليلة جداً حول المعنى الاضافي الذي يمكن أن تحمله ؛ ويتكون بالمقابل العدد الأكبر منها من أصداف ليتورينا Littorina أو من انواع ذات أشكال أكثر أو أقل دائرية يمكنها أن تذكر بأنياب الأيل ، وفي كل حال يوجد شبه كبير بين ذات أسنان الايل والرخويات والعديد من لآلىء العظم أو العاج التي يمكنها أن تكون تقليداً لهذه أو تلك ، كما يوجد أيضاً نماذج عديدة للسبريات Cyprées أو الغوري ، متحجرة أو معاصرة لأهل العصر الحجري القديم (صورة رقم F.G.5) ؛ ويبدو بالنسبة للسبريات أنهم عزوا اليها المعنى الذي لا يزال شائعاً حتى اليوم ، وهو أنّها رمز للعضو الجنسي الأنثوي . ويبدو هذا معقولاً أكثر ، كما سنرى فيما بعد، لأن صور النساء المنمنمة في الفن الجداري وبعض الأنواع العظمية تذكر بالرمز عينه في شكل قريب جداً منه .

ما خلا السبريات ، لا جدوى هناك من البحث عن معنى الأصداف الخاص ، ولكن تندرج قيمتها الدينية في المعنى الأكثر غموضاً بارتباطها الطبيعي بالأنواط العظمية ، التي يسهل فهمها قليلاً (أنظر الصورة رقم 16) .

http://al-maktabeh.com

الطقوس

إن آثار العمليات الدينية قليلة جداً في المواقع السكنية ، وسندرس في الفصل اللاحق الآثار الموجودة في الكهوف . ولقد لُمح فيما سبق إلى ركام شبه ـ كرات القطار Guettar وأرسي ـ سور ـ كور ، التي توحي بتركيب بنى ، منذ العصر الموستريائي ، ذات طابع غير تقني . ومن المؤكد أن تأويل بنى كهذه يبقى فرضياً .

وفي العصر الحجري القديم الأعلى ، يمكن ذكر الموزاييك المثلث من الحصى الصغيرة الذي اكتشفه بيروني Peyrony على أرض بلستوسينية في فورنو ـ دو ـ ديابل Fourneau-du-Diable ، في الدردوني Dordogne ، وفي بلجيكا موزاييك مؤلف من عدة عشرات من الميديات متداخلة في أصداف قرينية متحجرة عثر عليها دوبون Dupont على أرض من العصر الحجري القديم الأعلى . وتلتقي هذه الأدلة مع تجمع من الحجارة يصور بشكل غامض رأس حصان عثر عليه في روسيا . وتبين هذه الوقائع ، وهي من بين الوقائع النادرة التي لوحظت وحفظت ، أن أرض المساكن قد قدمت حقل عمليات ذات طابع ديني ، ورأينا أعلاه أن كثافة تلوين الأرض بالجأب الأحمر يمكن أن تعود الى أعمال منزلية تحتمل طابعاً دينياً . ولكن من الصعوبة بمكان تفحص مواقع السكن في المغارة : اذ ان الاحتلالات العديدة والمتتالية تلمس الآثار . وقد يحصل أحياناً أن يسمح اختلاف تلوّن الأراضي بالقيام بتفحصات دقيقة .

في أرسي ـ سور ـ كور ، يتوسط بين المستوى VII الاورينياسي Aurignacien ، والمستوى IX الشاتلبروني Chatelperronien ، وكلاهما في مجموعهما من الجأب الأحمر ، يتوسط بينهما مستوى سميك VIII من الصلصال الأصفر ، كان قد شيد بسرعة . وفي سماكة هذا الأفق ، عثرنا

على عدة كرات من الجأب الأحمر بحجم قبضة اليد داخلها أشياء . وتحتوي إحداها على شفرة من الصوان (صورة H, 5) ، وفي كرة أخرى قطعة من وظيف الرنّة مثبتة أفقياً ؛ وتتضمن الكرات الباقية قطعاً من الصوان المعجون بالجأب ، وقد حفظت سالمة ، ما عدا كرة ظهر أن محتواها يتضمن خمسين شظية من الفضلات وأدوات خارج الاستعمال ، وشأن أغلب الوقائع غير التقنية ، فإننا لا ندرك معنى هذا المستودع ؛ ولو كنا عثرنا على الشفرة الكبيرة فقط ، لكنا رأينا فيها هبة ، لكن ، ولحسن الحظ ، تأتي قطعة من عظم الرنة ومن صوان الفضلات لتظهر ان تفسيراجلياجداً يكون في أغلب الأحيان خاطئا . وفي عدة نقاط من المسكن والتي لا تناظر شيئاً محسوساً ، تبقى كرات من الجأب تتضمن عظماً وصواناً ، متروكة على الأرض .

وتظهر كافة هذه الوثائق كبر المسافة بين ما قدّمه مئة عام من التنقيب غير المنظم في أغلب الأحيان وبين ما استطاع أن يقوله المؤلفون عن ديانة انسان ما قبل التاريخ . لقد صار اليقين بالعمليات الدينية وببنية المعتقدات ثابتاً مادياً ، غير انه لا يمكن لهذا اليقين أن يتحول الى مفاهيم محددة حول التفكير الديني ، من دون أن يخاطر ببناء تراث علمي حقيقي .

وما ينتج عن ذلك هزيل بشكل مخيف . ويقع هذا العوز بجزء منه على عاتق طرق التنقيب التي تبقى حتى اليوم غير كافية ، وكان يمكن أن يرى أكثر من ذلك بكثير لو تمت المعاينة بأناة أكثر ولو رُفض مفهوم التنقيب الذي استوحاه الجيولوجيون الأوائل ، وكان مبرراً جداً بالنسبة لهم ، ولكنه مُتلِف عندما يتعلق الأمر بدراسة آثار الحياة الإنسانية ، ويرجع جزء من هذا الفقر الوثائقي أيضاً الى طبيعة الوثائق ، التي تكون مبهمة جداً إذا لم تستند الى تفحصات لا يعلوها الشك .

مكتبة المهتدين

وفي نهاية الحساب ، يكفي جداً أن نعرف أنه كان لإنسان النياندرتال سلوك يتجاوز الشرب والأكل ، وانه يكدس الكرات ويجمع المتحجرات والجأب،انه يخبىء جزءاً من أمواته وانه ربما يلتهم الجزء الآخر . وهذه المعرفة قيّمة بشكل لا نهائي خاصة عندما نفكر بأن الأمر لا يتعلق بنا ولكن بالإنسان الذي سبقنا .

وبالنسبة لنا ، نحن الذين ندخل التاريخ مع العصر الحجري القديم الأعلى ، كان يمكن أن ننتظر دقة أكثر ، لأنه عثر على بعض المساكن التي لم تمس تقريباً . والوقائع التي لا يمكن مهاجمتها قليلة جداً . إذ تتابع المتحجرات وظيفتها كأشياء للزينة ذات مضمون رمزي ، ويصير الجأب من لواحق الأعمال اليومية التي تبقى مجهولة تقريباً ويدفن الموتى بالجأب ويستخدم الجأب في مستودعات محيّرة من العظام والصوان ، وتظهر أحياناً فسيفساء غريبة وعظام كبيرة محزوزة أو مرسوم عليها حفظت في المسكن . ولا تشكل هذه الشواهد كلها أي بنية لتفسير متماسك ، ولكنها تؤكد على تفكير ديني معقد . قد يكون من السهل أن تُسد الفراغات بقطع من العراقة ، ولكن ذلك لا يعني إلا إضافة الفرضية على اليقين ، ولن يكون لدى انسان ما قبل التاريخ ما يربحه في حال لبس الفرضيات .

وسيكون بالإمكان ، في الجزء الثالث ، الذهاب الى أبعد من ذلك بكثير . وبالواقع ، افتُتحت منذ العصر الحجري القديم الأعلى ، مرحلة جديدة أمام الانسانية ، هي مرحلة التصوير التخطيطي . فقد ترك رجل الحصان والبيسون آلاف الصور ، التي إن لم تكن نصوصاً فإنها على الأقل بقايا أدب شفهي يمكن أن تبحث كما هي . وهنا أيضاً ، من الأفضل للقارىء أن يدنو من دون أوهام كثيرة ؛ واذا أراد أن يترك الكلام لرجل العصر الحجري القديم ، يجب التخلي عن جعله يرطن بلغة مصطنعة مؤلفة

من كلمات أوسترالية أو أسكيمو أو بانتو bantous ويلفظها على الطريقة الأوروبية . وسيفقد ، عند تركه لعبارته الخاصة ، الكثير من ثرثرته ولكنه يصير بالمقابل أكثر وضوحاً وأكثر ذكاء ، وليس في ذلك ما يدهش .

الفصل الرابع

الفن الديني

اكتشفت أول آثار فنية من العصر الحجري القديم في فرنسا وسويسرا في آن معاً ، منذ ما يقرب مئة وثلاثين عاماً . إذ كانت مغارة شابو Chabot في الاردش أول مغارة مزينة عثر عليها عام 1878 ، وتلتها بوقت قريب مغارة التاميرا Altamira ، في إسبانيا عام 1879 . وابتداء من 1895 ، قُبل فن ما قبل التاريخ بشكليه المنقول والجداري ، وعمل القس بروبل Breuil منذ 1900 على تأمين انتشاره مواصلاً نشاطه حتى وفاته عام 1961 . وأكد منذ نهاية القرن التاسع عشر على الطابع الديني لفن ما قبل التاريخ ؛ وكانت أسباب أيديولوجية خاصة بالمرحلة هي التي فرقت بين مناصرين لإنسان ما قبل التاريخ غير متدين ويمارس « الفن للفن » ومناصرين لرجال العصر الحجري القديم يمارسون « الفن السحري » شأنهم شأن البدائيين الحاليين . وعلى هذا المستوى ، كانت المقارنة العراقية مبررة جداً ، لأنها لم تكن تعمد بعد الى شرح واقعة من العصر الحجري القديم بواقعة تختار عند أي قبيلة حديثة ، ولكنها كانت تعرض لسمة انسانية أساسية ، لا تنفصل عن التقنية كما لا تنفصل عن اللغة ، وهي الأصل المشترك لكل من الدين والفن .

ولا يكون للمناقشة أي أساس إذا فصلنا بين الفنان ، الذي لا يخلق إلا أشكالاً ، وبين رجل الدين الذي لا يصور إلا الآلهة . وحتى في الأعمال الأقل تصويرية والأكثر تجرداً عن المضمون الديني ، يكون الفنان خالقاً

لرسالة ، ويمارس من خلال الأشكال وظيفة ترميزية تبرز أيضاً في الموسيقى أو اللغة . وترجع هذه الرسالة الى الحاجة الجسمانية والنفسانية في آن معاً ، لتأمين سيطرة الفرد والجماعة المجتمعية على الكون ، ولتحقيق اندماج الانسان ، من خلال الجهاز الرمزي ، في المتحرك والعرقي اللذين يحيطانه . ولقد قادت بضعة آلاف من السنين أوروبا الى أن تقطع في طرق ضبطها للنسق الكوني بواسطة التصوف والسحر والعقيدة والقانون والعلم والتقنيات والفلسفة ، ولكن وفي الطور الذي كان عليه انسان العصر الحجري القديم ، وإذا كان لديه عطش يوازي عطشنا لفهم المعروف والغامض ، فإنه لم يكن يمكنه أن يعبر عن نفسه في سستمة تماثل سستمتنا ؛ إذ كان المعروف والغامض يعبران عن نفسيهما بسيستام وحيد ، مختلف ولكنه يوازي بعقلانيته الفلسفة اليونانية أو فيزياء الذرة ، مفتاح إنسان ذلك العصر للأمان العملاني opératoire في كل مجالات الحياة والموت . ولقد طرح علم السلالات شيئاً فشيئاً منذ ثلاثين عاماً الجهاز النظري الذي كان يجعل من الانسان البدائي أوروبياً لم يكتمل نضوجه الذهني ، ووجد فكراً متماسكاً وانسانياً ، في التظاهرات الجزئية التي كانت تخدم كدعامة للنظريات القديمة حول ذهنية الانسان البدائي . ولماذا يبحث ، عندما يتعلق الأمر بالانسان البدائي ، في خزانة العجائب عن خرق تنكره في شكل أوسترالي بالنسبة الى عالم اجتماع القرن التاسع عشر ؟ ومنذ خمسين عاماً ، كان غريباً أن ينطلق من فكرة مفادها أن دين ما قبل التاريخ ، لكونه يتقلص الى عناصره الأولية البدائية ، عليه أن يحتوي على ما يعتبر أكثر دونية في الديانة الحالية : ممارسات تعاويذ ، صيد إيمائي ، رقصات مسارية ، مشاهد تزاوج ، حانوت كامل من الممارسات التي رواها صدفة مسافرو المتقاطرات ، والتي تهين الأقزام أو الفويجيين Fuégiens أنفسهم ، لأنها اختيرت في نية مبيتة وعن جهل بالأساس الذي يربطها بصورة ما بالعالم .

ولماذا يُرفض أن يكون إنسان العصر الحجري القديم الأعلى قد مارس قدر ما يشاء من السحر ، بينما ليس هناك ما يؤكد ذلك أو ينفيه ؟ لنفترض أن مجدلياً ، ساحراً كبيراً في قبيلته الصغيرة ، قد نقش صورة حصان وبيسون بعد أن يكون قد طلى صفيحة من النضيد بمزيج من دم الحيوان الأول وشحم أمعاء الحيوان الثاني ، وانه قد نفخ عليها وهو يدمدم ويهمهم ثم وضعها على جلد ثعلب مزخرف ببعض أزهار الموسم ، في مؤخرة الملجأ ، ومرتدياً تركة وعل ، ورقص وهو يثغو وغرز أخيراً رمحاً رمزياً في الأرض ليثبت القطعان لكل رحلة الصيد . ظاهرة جميلة من سحر الصيد من المؤسف أنه لم يكن بالإمكان تثبيتها على فيلم ، لأنه لم يبق أي أثر مما جعل هذه الواقعة سحرية . لقد اختفى كل شيء الحركات والجلود والرقيات والرقص ولم يبق إلا صفيحة النضيد المنقوشة التي يراد منها أن تبرهن على أن عملية سحرية قد تمت هنا . وهي بالتأكيد تبرهن عن ذلك ، ولكن ما ان يحاول أن يُطبق عليها أحد الاقتراحات حتى لا تكون إلا في حضور سحنة بشرية مقنعة تؤسيء في مؤخرة مغارة ، ومع ذلك فإنّ الصفيحة المنقوشة والتي بقيت ، قد تكون أكثر من مجرد ملحق مبهم . إذ ترتبط دائماً الأشياء الدينية للبدائيين الحاليين بإطار من الأفكار المتناسقة والرفيعة بالنهاية ، وحتى لو بدا لنا منطقهم عبثياً .

ومرة أخرى أيضاً ، سيخدمنا مثلنا المألوف عن المسافر الكوكبي : فلو كان يشاهد سباق قداس دون أية معرفة مسبقة بالمسيحية ، فإنه سينقل الى كوكبه معلومات لن تنير بالتأكيد مثقفي تلك المنطقة ؛ وفي كل حال ، سيكون قد سجل أن المسيحيين يستسلمون لسلسلة من الحركات الشاذة جداً والمقولبة بشكل غريب ، ولا تملك أية دلالة ظاهرة ، لينتهوا بعملية سحر تقليدي ربما تهدف الى تأمين نمو القمح ، لأنهم يأكلون شيئاً يشبه الخبز . ومن الأفضل أن لا نحكي عن دين ما قبل التاريخ إذا كنا سنتبع

السبيل عينه . ولكن لنذهب الى أبعد من ذلك ، ولنتخيل كائننا الكوكبي يتفحص الكنيسة ويلاحظ أن هناك عدة طاولات متشابهة في أمكنة مختلفة ، وأشياء تمثل رجلاً جريحاً ، وممزقاً على صليب وان الرجل عينه يظهر في سلسلة من اللوحات على طول الجدران ، في أوضاع مختلفة ومع أشخاص مختلفين ؛ فما هي الصلة التي سيقيمها بين الوجبة الصورية والرجل المُنكّل به ؟ وماذا سيكون لديه ، وقد غابت سلسلة المفاهيم الضرورية ، هذه الصورة التي تؤمن اندماج المسيحي في الكون الطبيعي وما فوق الطبيعي ، ليجعل منا شيئاً آخر غير هياكل ؟ ولنفترض أنه سيكون صبوراً : وسيتفحص عشرين ، أو مئة كنيسة وسينتهي بأن يلاحظ أن الشواهد المادية تناظر سيستاماً متماسكاً ، وان البناءات موجهة، وان أجزاءها ثابتة ، وان الصليب واللوحات ترجع إلى موضع ثابت جيداً . فقد لا يعيد على الإطلاق العلاقة بين الفكر المسيحي والانجيل ، ولكنه قد يتوصل إلى أن يؤكد أن شيئاً ما رفيعاً رمزياً يقوم وراء هذه الشواهد المبهمة . وقد يتوصل بالتأكيد إلى إعادة بناء ديانة المسيحيين بطريقة تذهل بخطئها ، ولكنها تؤكد أن هؤلاء الناس يملكون رؤية متماسكة جداً عن نشأة الكون وأفكاراً متقدمة جداً عن تناوب الحياة والموت .

ولم نتبع منهجاً آخر ، بتخلينا عن كل ما عثر عليه عند البدائيين ، وبمحاولتنا القيام بجردة لكل ما تركه رجال العصر الحجري القديم لم نكن نريد أن نرى ما إذا كانوا يرقصون بقرون ، ولكن ما هي أكثر أفكارهم عمومية والتي يمكنها ان تترك شواهد مصورة . وتختلف الصورة التي ألفت بهذه الطريقة عما عودنا عليه ربع قرن من النشر ، وهي بالتأكيد تعادل بروعة خطئها تلك الصورة التي بناها المسافر الكوكبي حول المسيحيين وقد يهز رجل كرومانيون Cromagnon كتفيه عند قراءته هذه الصفحات . ومع ذلك ، فإنها يجب أن تتضمن ولو جزءاً صغيراً من حقيقة ما ، لأنه في نفس

الوقت الذي كنا نقود أول أبحاثنا ، توصلت السيدة لامينك ـ امبرير Mme Laming-Emperaire وبسبل مختلفة جداً ، إلى نفس النتائج حول جزء مهم وهو حشد الحيوانات .

تؤكد مئات الأعمال على فن الأثاث في العصر الحجري القديم ، بعضها مؤرخ بشكل جيد نسبياً ، لأنه عثر عليه في طبقات من الأرض مع أدوات وأسلحة يمكن تأريخها . ففن الأثاث إذن هو الخيط الأكثر أماناً الذي يمكنه أن يقودنا في اعداد تسلسل تاريخي للأساليب ؛ التي تهمنا جداً في محاولة فهم تطور المفاهيم المحتمل . وفي الغالب تكون الأشياء منقطعة عن سياقها الطوبوغرافي وليس من السهل إدراك علاقاتها المحتملة مع فكرة يمكنها أن تحقق اتساقها .

والفن الجداري مجرد بأغلبيته من الوسائل المباشرة لإمكانية تأريخه . وعلى العكس ، توجد الصور في المغارات في الأمكنة التي وضعها الانسان فيها . وبعد أن وُضعت على مخطط كافة صور مئة ملجأ تحت الصخر وفي الكهوف ، بُحث عن صورة توليفية بواسطة الاحصاء والكتابة الآلية . وشأن المسافر الكوكبي يجب أن تكون هذه الصورة متنافرة لو كان الأمر لا يتعلق إلا بصور رميت صدفة على الحائط ؛ اما لو أظهرت توزيعاً متعمداً في المساحة فإنها كانت سترد على قوام ما . وكانت الصورة منسجمة حتى في التفاصيل ومحددة بشكل يضيء بدوره جزءاً مهمّاً من فن الأثاث ؛ ولكنها صورة من دون أي مفتاح ، توازي ببعدها عن الواقع الصورة التي أمكن لزائرنا من الكوكب الآخر أن يحملها عن المسيحية .

توزع فن العصر الحجري القديم

يشهد على فن العصر الحجري القديم في مجال عالمي ضيق نسبياً . وإذا استثنيت منطقة بحيرة بايكال Baïkal حيث زيادة على ذلك ، تتشابه الوثائق فيها مع وثائق الغرب ، فإنه يبدأ في الأورال Oural ويمتد حتى الأطلسي .

ويغطي فن الأثاث أوسع مساحة : اسبانيا وفرنسا وايطاليا وبريطانيا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا واكرانيا وروسيا حتى الدون . ويقتصر الفن الجداري عن ذلك لأنه لا يشمل إلا اسبانيا وفرنسا وجنوب ايطاليا ، ولكن عثر في الأورال عام 1961 على مغارة ذات رسوم تعود للعصر الحجري القديم .

ولا يتساوى هذا التوزيع في كثافته كما أنه يتغير وفق المراحل . وتنتشر أكثر المنازل كثافة في فن الأثاث والجدرانيات في استوري Asturies والكانتابر Cantabres وبلاد الباسك ، والبيرينيه وجنوب ـ غرب فرنسا من الهضبة الوسطى الى الأطلسي من اللوار الأعلى . وتندر الشواهد في أعلى الشمال . ويعثر بالأخص في بلجيكا وألمانيا وسويسرا وفي الألب أو الجورا Jura على شواهد مجدلية حديثة ، تتبع آخر انحسار للتراكمات الثلجية الكبرى . وتبقى المواقع في وادي الرون وايطاليا قليلة حتى الآن . بينما ناحية الشرق ، ورغم عدم وجود الكهوف . تركت التجمعات في الهواء الطلق ، على العكس فناً أثاثياً وفيراً .

وسيرى فيما بعد الوحدة الرائعة للمضمون الصوري ، ولا يبدو أن معنى الصور الظاهر قد تغير من ـ 30000 الى ـ 9000 قبل عهدنا ولقد بقي هو نفسه في استوري Asturies والدون Don . ويمكن أن يُقبل التواصل في التصورات في المكان والزمان على أنه نتيجة حتمية : إذ أنه عند مستوى ثقافي متساو ، تبرز الظاهرات عينها . وإذا كان بإمكان الحتمية أن تفسر التبني والثبات ، فإنه لا يمكنها أن تشرح أصل سيستام يوازي بتعقيداته الصور المشتركة ؛ ويمكن أن يستتبع الانتشار بالاتصال بسط الرمزية الصورية حتى الحدود . ويدعم هذه الفرضية التحول التدريجي من الشرق الى الغرب ، ومن الدون حتى الأطلسي ، لأحجام وتفاصيل جسدية

http://al-maktabeh.com

لتماثيل انثوية (أنظر فقرة التماثيل) . لقد كانت أوروبا في ذلك الحين تشكل مسبقاً مساحة ثقافية واسعة جداً ، متنوعة في تفاصيلها ولكنها متجانسة بمجموعها .

ويشهد التشبع بسيستام وحيد للاسنادات الرمزية على هذه الوحدة النسبية ، ولكنه لا يدل على الإطلاق على أن كل الجماعات التي تبنته قد أعطته نفس المضمون الايديولوجي ، لأنه يمكن للرموز الخطية عينها أن تطبق على مضامين مجتمعية أو دينية أو أخلاقية من الأكثر تنوعاً .

وتظهر دراسة الأعمال ، التي تكفي كثافتها ، أن الوحدات الاقليمية كانت صلبة وثابتة على مر العصور . وتظهر ، بين العصر السولتري والعصر المجدلي الحديث ، مناطق أستوري والكانتابر والبيرينيه الوسطى وكرسي والدوردوني تفرداً مدهشاً في الأسلوب ؛ ويبدو أن وادي الرون قد شكل كياناً جغرافياً مستمرّاً ، ومن الخطأ الشديد تخيل شعوب ما قبل التاريخ على أنها تطوف بسرعة المساحات الواسعة بين الأطلسي والأورال ، في حركة مروحية Tourbillonnant ؛ إذ لا يبدو أن عالم ما قبل التاريخ كان مختلفاً جداً عن العالم التاريخي .

تسلسل الاساليب الزمني

مع كون تاريخ فن ما قبل التاريخ ليس على علاقة ظاهرة مع موضوع هذا الكتاب ، إلا أنه مهم جداً لفهم التفكير الديني . فمن الضروري جداً أن نعرف ما إذا كانت صور لاسكو Lascaux قد أضيفت الواحدة الى الأخرى منذ الأورينيسيان Aurignacien حتى العصر المجدلي أو ما إذا كانت ترجع بمجموعها الى المرحلة عينها ، أو أيضاً ، ما إذا كان زخرف مختلف صالات الكهف الواحد ، مثلاً ، يناظر مراحل متتالية وبالنتيجة إذا لم يتم وضع الصور صدفة ولكن ضمن عالم خفي محدد جيداً . وسيُرى فيما بعد أن

احتمالات التسلسل التاريخي وحدها هي التي تسمح بالقول بأن فن ما قبل التاريخ قد بدأ بالتجريد وأخذ ينحو نحو واقعية تتأكد أكثر فأكثر ، وانه لا يمكن تفكيك الاشارات المجدلية الا من خلال متابعة الأشكال منذ الاورينيسان . وفي الواقع ، لم ينفصل التسلسل التاريخي للصور والاحصاء الطوبوغرافي في العمل الذي قاد الى الخلاصات الحالية (صورة 6) .

المرحلة ما قبل التصويرية . لقد عرف الموستيرياني المتطور (حوالي - 50000) الجأب وجمع المتحجرات ، ولكن لم يتم التأكد فيه من أي عمل تصويري ودشن الشاتلبروني (حوالي - 35000) اشياء الزينة ، ولكن لم تعرف فيه أية صورة واضحة . وبالعكس يعثر فيه على عظام عديدة وعلى صفائح حجرية تحمل حزازات متباعدة بانتظام : وبما أن الجأب كان وفيراً جداً في تلك المرحلة فليس مستحيلاً العثور في أحد الأيام ، على صور .

المرحلة البدائية (الأسلوبان I وII) - لقد ترك الاورينياسي صوراً منقوشة أو مرسومة على صفائح كلسية لا شك فيها (الدوردني Dordogne : الفراسي La Ferrassie ، وقاء سوليه Abri Cellier ؛ البيرينيه السفلى : استريتز Isturitz) . وكلها صور مجردة جدا وشديدة الانحراف ، تمثل رؤوساً أو مقدمات حيوانات يصعب التعرف عليها بشكل عام ، وتمتزج بتمثلات عن الخصوبة .

ويظهر الأسلوب II من الأسلوب I ببطء خلال العصر الغرافيتي والسولتيري القديم (حوالي -25000, 20000) ، وتناظر هاتان المرحلتان في أوروبا الغربية ثقافات مختلفة في الشرق . وتبنى صور الحيوانات بالطريقة عينها ، وتعلق على خط ملتو جداً يمثل الرقبة والظهر ، تفاصيل مقتضبة جداً في الغالب ، تميز البيسون عن الحصان وعن الماموث والوعل . . . الخ . .

al-maktabeh
مكتبة المهتدين

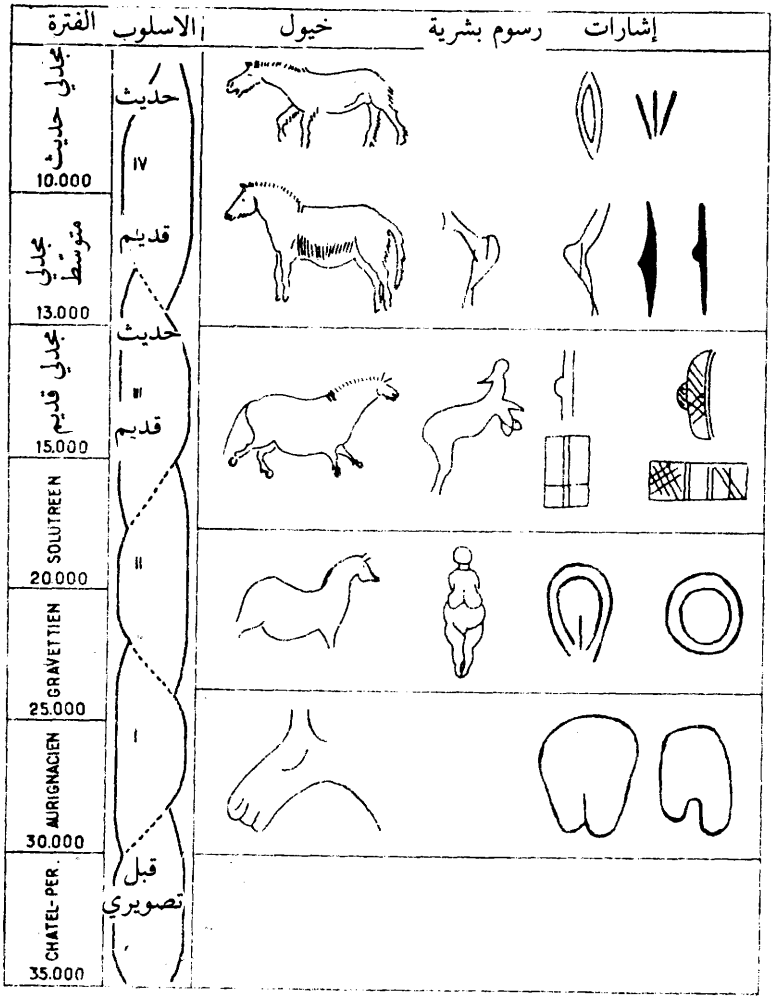

صورة رقم 6

التسلسل التاريخي لمراحل وأساليب العصر الحجري القديم الأعلى .

وترجع الصور الانسانية الى نمنمة جد متقاربة : فالجذع أضخم بكثير من الأطراف ، وهذا ما أعطى الفكرة بأن نساء العصر الحجري القديم كنّ سمينات بشكل خاص . وترجع أقدم الصور الجدرانية الى تلك المرحلة : (جيروند : بار ـ نون ـ بار Pair-non-Pair ؛ البيرينيه ـ العليا Hautes Pyrénées : غرغاس Gargas) .

المرحلة القديمة (أسلوب III)

شهد العصر السولتيري الأسلوب II ينضج ويفضي الى السولتيري الحديث (شارنت Charente : روك ـ دو ـ سر Roc-de-Sers ؛ الدوردوني : فورنو ـ دو ـ ديابل) ، في الأسلوب III (حوالي -15000,20000) . إذ تبلغ القدرة التقنية تمامها وتعبر الرسوم والمنحوتات والنقوش عن نوعية مذهلة في التنفيذ، ومع ذلك يبقى المعيار قريباً من أسلوب II فللحيوانات المصورة جسم ضخم ورأس وأطراف صغيرة . وتنتمي الصور الانسانية الى المبادىء عينها . وغالباً ما أدت هذه النسب الخاصة بالأسلوب III الى اعتبار أن هذه الصور تمثل « حيوانات حبلى » ، وهي فرضية لا يمكن مراقبتها في أغلب الأحيان ، ولكنها مسلية بالفعل إذا عرفنا أن الحيوانات تظهر خصائص ذكورية لا مجال للنقاش فيها . والتحف الجدرانية عديدة وتصل الى عدة مواقع من المستوى الأول (دوردوني : لاسكو ، كانتابر : لا باسيغا) . وتظهر إشارات الأسلوب III وأشكال الحيوانات تطوراً واضحاً بين بداية ونهاية المرحلة (إشارات حواجز تتبعها إشارات معانقة) .

المرحلة الكلاسيكية (أسلوب IV القديم) . وتفضي التحولات في العصر المجدلي (حوالي -11000,15000) الى أشكال واقعية متقدمة جداً ؛

وتدمج الحيوانات في نسب قريبة من نسب الحيوانات الحية وتملأ بتفاصيل عديدة للشعر ونماذج مقننة بأحكام . ومع ذلك تبقى الصور كأنها معلقة والأطراف متأرجحة ، ولن تبدو الأطراف مرتاحة على الأرض إلا في النهاية . وتبين التماثيل الصغيرة والصور الجدرانية تحولاً في الهيئة الانسانية ، إذ قلصت في الغالب الى جذع من دون رأس ولا صدر ولا ذراع وصورت عن الجنب . ولقد عرفت الكهوف المزخرفة أوسع امتداد جغرافي لها وتنتمي أغلبية أكبر المواقع الى تلك المرحلة (فيينا : انغل ـ سور ـ لانغلان Angles-sur-l'Anglin ؛ الدوردوني : فون ـ دو ـ غوم Font-de-Gaume ، كاب ـ بلان Cap-Balnc ، لي كومباريل Les Combarelles ؛ اريـاج Ariège : نيو Niaux لي تروا فرير Les trois-frères ، مونتسبان Montespan ، كانتابر : التاميرا : الكاستيو El-Castillo) .

المرحلة المتأخرة (أسلوب IV الحديث) ـ تتوقف تدريجياً في العصر المجدلي (حوالي ـ 1000) زخرفة الكهوف ويصير الفن أساساً فن الأثاث . وتفقد الصور آخر بقايا الأساليب القديمة ، وتدمج الحيوانات في واقعية تدهش بدقة شكلها وحركتها . ويصل إذ ذاك فن الأثاث الى بريطانيا وبلجيكا وسويسرا . وفي حوالي 9000 ، يسم انحطاط مفاجىء نهاية العصر الحجري القديم الأعلى ، وتنحل شواهد العصر المجدلي النهائي القليلة في الاضطراب والتبسيطية .

وهكذا ، يتبع فن العصر الحجري القديم انحناء تطورياً متماسكاً ، يمكن مقارنته ببقية الفنون التي عُرفت في كل المراحل ، مع بقائه متصلاً بنفس البعد الرمزي . ويبرز من دراسة التسلسل التاريخي وجه آخر ، يفسر بعض الشواذات التي أدهشت المؤلفين : إذ يكثر الاختلاف في كثافة الفن

الجدراني وفن الأثاث على مر العصور . ففي مدة 20000 سنة لم يُجمع من أعمال فن الأثاث إلا 20% في الأساليب I ، II ، III ، وتتكتل 80% من الأعمال في 8000 أو 4000 سنة في الأسلوب IV بشكل ان الأعمال الاثاثية هي مجدلية قبل كل شيء ، وحديثة بأغلبيتها . بينما يتبع الفن الجدراني التوزيع التالي : الأسلوب I : 0% ، الأسلوب II : 15% الأسلوب III : 27% ، الأسلوب IV القديم : 54% ، الأسلوب IV الحديث : 4% ، بشكل يبدو معه انه سولتيري بالأساس أو مجدلي قديم ومتوسط ويختفي في لحظة أوج فن الأثاث . وهذا ما يفسر أحد الشواذات التي لوحظت : تندر الرنة في الصور الجدرانية وتتواتر كثيراً في فن الأثاث لأن نهاية العصر المجدلي الوسيط، حيث كانت دفعات البرد قوية جداً ، تناظر آخر الكهوف المزخرفة (كومباريل ـ تروا ـ فرار Cambarelles, Trois-Frères) وتصاعد أهمية الرنّة في الآن عينه .

ويُلاحظ واقع آخر يدهش عندما يُتأمل في ظرف مجموعات صور الكهوف . إذ لم تفكك على الجدران أية صورة يمكن إسنادها بحق الى الأسلوب I ، وكل ما يملك منها عثر عليه على كتل داخل المساكن قرب النور . ويمكن لهذه الصور أن تكون قد وجدت (على الجدران) ولكن يبدو أن التآكل قد محاها . وصور الأسلوب II هي أيضاً أثاثية ، ولكن عثر عليها عند مداخل بعض المغارات (جيروند : بار ـ نو ـ بار ؛ دوردوني : لاغريز ، غارد: مغارة شابو) . أو في الظل (البيرنيه ـ العليا : غرغاس) . واكد على الأسلوب III في منطقة النور (شارنت : روك ـ دو ـ سر Charente: Roc-de-Sers) ، وفي المدخل وأول منطقة الظل ، حتى عمق بضع عشرات من الأمتار التي تستتبع إضاءة مستمرة (لاسكو ، لوت : بك ـ مرل ؛ كانتابر : كوفالاناس ،لا ماسيغا) . ويمثل الأسلوب

IV القديم في المدخل وحتى عمق أكثر من كلم في مغارات يصعب بشدة أحياناً الوصول اليها (يون ـ ارسي ـ سور ـ كور ؛ الدوردني : روفينياك ؛ البيرنيه ـ السفلى : اتشبريكو ؛ ارياج : مونتسبان ، لي تروا ـ فرار) . ولا يُعرف الأسلوب IV الحديث بيقين الا من جديد في المدخل (دوردوني : تيجا ؛ لوت : سانت ـ أولاليا) .

هناك غزو تدريجي للأعماق ، يمتد حتى بداية الاسلوب IV الحديث (ظهور الرنّة) ، ويتوقف بينما يبقى لفن الأثاث ألفان أو ثلاثة آلاف سنة من العمل . ومن المهم من الوجهة الدينية معرفة فترة ارتياد المغارات المزخرفة . ولم يعرف الكثير منها الا مرحلة واحدة ، شأن مغارة لاسكو التي تمتد على طول طوري الاسلوب III ولا تحتوي الا على آثار من الأسلوب IV القديم . وكان لبعض منها فترة ارتياد طويلة جداً شأن مغارة التاميرا أو فون ـ دو ـ غوم Font-de-Gaume اللتين عرفتا كل الأسلوب III والاسلوب IV . ويظهر أن عدداً لا بأس به من الكهوف العميقة قد زخرفت لمرة واحدة ثم هُجرت فيما بعد شأن دهاليز مونتسبان Montespan العميقة أو ارسي ـ سور ـ كور Arcy-sur-Cure ، اتشبريكو Etcheberiko ، نيو Niaux . وبالإجمال ، لا تبتعد خصائص المغارات المزخرفة عن خصائص « الآثار التذكارية » ؛ أي أنها ليست ركاماً فوضوياً لصور جمعت من كل المراحل ، رسمت على الجدران ، ولكنها ، شأن « الآثار التذكارية » للثقافات الأخرى ، مجموعة شواهد ذات أساليب سويت بطريقة شبه محددة ، ولكنها كانت متماسكة ، ويصير هذا الواقع مهماً عندما نبحث عن تعريف لوظيفتها .

مواضيع الفن الجداري والفن الأثاثي

يشتمل العصر الحجري القديم في مجمله ، ثلاث فئات : الحيوانات ،

والكـائنات الانسـانية والاشـارات . وفي لائحة النسب المعـروضـة هنـا ، بالنسبة للفن الجدراني والأثاثي ، لم يؤخذ عدد الافراد المصوّرين ، بل أخذ بالحسبان وجـود « موضـوع » معين في كـل مجموعـة (فاعتبـرت لوحـة من البيسون على أنها « موضوع ـ بيسون » وحصلنا بذلك على مجموعة إحصائية تقدر بحوالي 1800 حالة (1794) موزعة كالتالي :

حصان	: 24		
إشارات	: 15	54%	
بيسون	: 15		
وعل	: 7		
رنّة	: 6,5		
أرخص	: 5		
أيل ـ ظبية	: 4,5		
رجل	: 4		
دب	: 3	شمواه	
سمكة	: 3	اروس	أقل من 1% أو مشكوك فيها
امرأة	: 2,5	ثور المسك	
سنوري	: 2	ذئب	
طير	: 1	ضبع	
ماموث	: 1	وحوش	
وحيد القرن	: 1	أفعى	

ويشمـل هذا الجـدول فن الأثـاث والفن الجـدراني ، ويمكن أن يـأخـذ بالاعتبار تقدم الرنّـة المتأخر الذي يقل عن 1% في المغارات ويساوي 15% على قطع الأثاث . وينطبق التصحيح عينه على السمكة ، التي تندر نسبياً في المغارات وتصل نسبة تصويرها في فن الأثـاث الى 7,5%.وما يلفت الإنتبـاه بوجه عام ، هو أن 54% من المـواضيع التي عمـل بها تـرجع الى الحصـان

والبيسون والاشارات . ولا تتدخل الصور الأخرى الا عرضياً . هناك إمكانية لتفسيرين : فإما أن يكون الحصان والبيسون الطريدة الاساسية فصوّرا بنسبة أهميتهما الحيوية ؛ وإما أن يكون « البيسون ـ الحصان ـ الاشارات » موضوعاً رئيساً ذا طابع « اسطوري » . ومع أنه يمكن التوفيق بين هاتين الفرضيتين ، فسيبرهن لاحقاً أن هناك حظاً أكبر في تبرير الفرضية الثانية . التي لا تكفي للوهلة الأولى ، إذ يبقى اعطاء تفسير لوجود المواضيع الأخرى وبشكل خاص للمرأة والرجل .

الاشارات (صورة 7)

يبقى أن يعطى على الأخص تفسير للاشارات ، التي يكثر عددها وحضورها في كل الكهوف . فتُرى في المصائد ، والأكواخ ، والمصائد ـ الأكواخ والسلاح والشعارات ، التي تعتمد على تشابه غير واضح للأشكال وعلى التطابق العراقي . وقادنا سبيلان الى تبني حتمية مختلفة كلياً . الأول هو الاحصاء الطوبوغرافي . وسيرى فيما بعد أن الاشارات تتوزع في المغارات على مجموعتين : الجماعة α وتتضمن اشارات ممدودة (خطوط صغيرة ، وعيدان ، وخطوط منقطعة) والجماعة β وتتضمن اشارات ممتلئة (أهاليج ، مثلثات ، مستطيلات ، معانقات ، الخ . .) ويحمل التوزيع الطوبوغرافي التأكيد على اختلاف ادركه رجال العصر الحجري القديم . والتسلسل التاريخي هو السبيل الثاني : فنجد في الأسلوب I (صورة 6) امتزاج الحيوانات مع تصاوير فرجية وقضيبية واقعية ، ونجد في الأسلوب II تجمع الحيوانات عينه تصاحبه أشكال بيضاوية متميزة أيضاً وخطوط منقطة أو خطوط صغيرة ؛ اما في الأسلوب III الثالث القديم ترافق الحيوانات صور مقطعة وخطوط صغيرة ، وإشارات متشعبة ؛ وفي الأسلوب III الحديث نجد اشارات ممتلئة تتعانق والخطوط الصغيرة عينها والنقاط ،

وفي الأسلوب IV القديم ما يُرافق الحيوانات هي اشارات هراوية الشكل ، وخطوط صغيرة ونقاط ؛ وتظهر في الأسلوب IV الحديث الأهاليج من جديد ، والتصاوير الفرجية المبسطة جداً ، والخطوط الصغيرة . وكانت هذه الاعتبارات تكفي لتثبيت فرضية ان الاشارات هي رموز ذات طابع جنسي ذكوري وأنثوي ، لو ترك رجال العصر الحجري القديم الوقت للآخرين ليكتشفوا المعنى الذي يعطونه لهذه الصور . وأوضح مثل تقدمه قطعتان من الأسلوب IV القديم : الأولى من الدوردني Dordogne (لامادلين La Madleine) ، والثانية من الأرياج L'Ariège (ماسا ـ Massat) اللتان تقدمان نفس موضوع الدب والقضيب والفرج ، عولج في المرة الأولى بطريقة واقعية فجة ، وفي المرة الثانية بطريقة مجردة صرف (صورة H.I. 15) .

ان تكون أكثر التصاوير تجريدية قد احتفظت بمعناها الأول أمر برهن عليه في التجاويف التي لا يوجد فيها الا اشارات مجردة (لاسكو أونيور . . .) بينما في الأماكن الأخرى احتفظت تصاوير واقعية بنفس الدور (غوي Gouy ، سان ـ ماريتيم Seine-Maritime ؛ ارسي ـ سور ـ كور ، يون ، برغوست Pergouset لوت ، Lot ؛ تيتو بوستيللو Tito Bustillo ، استوري Asturies . . .) . قد تكون الإشارات اذن رموزاً مجنّسة ، حتى لو قبل أنه في بعض المناطق ، وفي بعض المراحل ، قد أمكن للمعنى التشريحي أن يتلاشى . ومع أن مؤلفين قد ظنوا أنهم رأوا مشاهد تزاوج ، فإن فن العصر الحجري القديم (على عكس الفن الصخري الأكثر حداثة) لم يظهر على الإطلاق حتى الآن أي مشهد للتزاوج ، سواء إنساني ، أو حيواني . حتى انه يمكن ملاحظة أن الغالبية العظمى من صور الحيوانات لا يعرف جنسها حتى لو كانت أشكال قرون الوعل والقرون

http://al-maktabeh.com

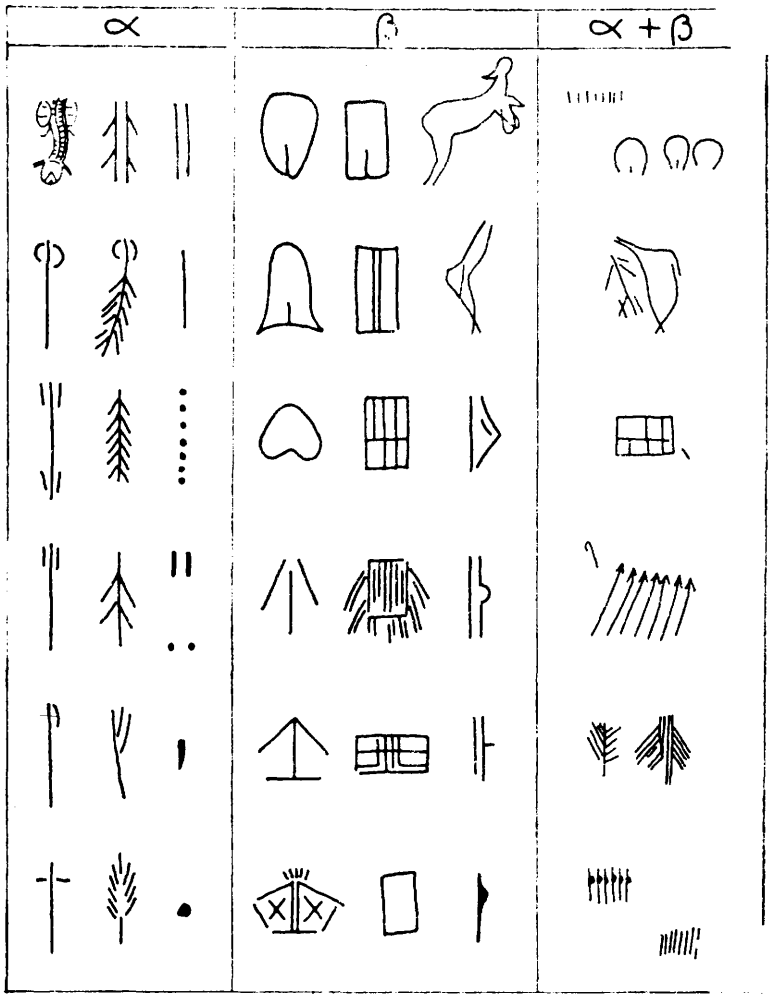

صورة رقم 7

إلى اليسار وفي المركز : متغيرات الاشارات الذكورية والانثوية .

إلى اليمين : أزواج من الاشارات .

الأخـــرى ، وحمل العنق أو خط الظهر تترجم برهافة وجود حيوانات ذكر أو أنثى : تظهر الخصائص الجنسية الأولية باحتشام أو انها تمحى عمداً . وعلى العكس ، تظهر صـور الرجـال وبعدد متسـاو وبـكل ملمـوس خصائص ithyphalliques أو تصويراً بسيطاً لجنسهم . وتبعاً لـلأسلوب I ، تأخـذ الرموز الانثوية بطريقة مميزة أشكالاً تعادل بقلة واقعيتها « شعارات » لاسكو Lascaux ، ومنذ الأسلوب I تتقلص الرمـوز الذكـورية الى قضبـان أو الى خطوط منقطة . لم يفقد رجال العصر الحجري القديم ، في أيـة لحظة من اللحظات ، معنى الإشارات الرمزية ، لأنه يـرى من وقت لآخر ، إنبثـاق تأويلات واقعية ، ولكن مسارها يبقى مسار كافة الجماعات الانسـانية التي تُعبـر عندهـا الازدواجية ، مهـما كان المعنى الـذي تحمله ، برمـوز الجنسية الانسانية ، واقعية كانت أو مغلفة . بالتأكيد ، هناك مجال للتفكير بأن لهذه الصور علاقة بالخصوبة ، وهـذا ليس بشأن تـافه . والشيء الأكيـد ، على العكس ، هو ان الاشارات ، شأن كثير من الحيوانات ، مـزدوجة وليست متزاوجة . ويتضمن عـدد كبير من التجمعـات المركـزية ، في الكهـوف ، وجود اشارات اما منثورة بين الصور الحيوانية ، وإما مجتمعة في رتج . ولقد فاتت هذه الواقعة ، على عكس ما ينتظر، ثلاثة أرباع قـرن من التأمـلات حول فن ودين الكهوف .

الصور الجدرانية

تنتج الأرقام المعطاة في الصفحات التالية عن دراسة 72 مغارة مزخرفة ، تم اختيارها لأنها حفظت بشكل يبقيها مقروءة ، من بين 125 مغارة معروفة. لقد دُرست جميعها على الأرض وحدّدت صورها عـلى مخططات . وتـرجع 2500 صورة تم احصاؤها الى أكثر من 1200 موقع على الجدران . وحللت المعطيات التي قدمتها الصور ومواقعها كالتالي :

al-maktabeh
المهتدين

وُزعت الحيوانات وفق أهميتها العددية على أربع فئات : A . حصان ؛ B : 1 . بيسون ، 2 . أرخص ؛ C : 1 . أيل ، 2 . ماموث ، 3 . وعل ، 4 . رنة ؛ D : 1 . دب ، 2 . سنوري ، 3 . وحيد القرن .

وتشكل الصور الذكورية والأنثوية والاشارات الممتلئة أو الرقيقة ، فئتي α وβ . وحفظت فئة خاصة γ للاشارات التي تسم بداية ونهاية صور عدد من المغارات (ودمجت هذه الاشارات هنا بإشارات α) .

في المغارات ، تسمح صور الحيوانات أو الإشارات باندماج على جانب من التعقيد : فبين المآطورات المستخرجة ، والرتج والمضايق étroitures والمنعطفات ، يلاحظ توزيع ليس اتفاقياً صرف . ويمكن تحديد ثلاثة مواقع (صورة 8) :

I : في المآطورات ، ذات الأبعاد والنسب المختلفة ، المكونة من أجزاء مسطحة نسبياً أو خارجة عن الجدران فيميز الجزء المركزي (Ia) والمحيط (Ib) .

II : عند مداخل رتج (II a) ، أو في نفس داخل (II b) ، أو في الصدف (IIc) .

III : في المساحات التي تفصل المآطورات وبشكل خاص في أول نقطة تظهر فيها (IIIa) ، أو في التقلصات أو المنعطفات (IIIb) عند آخر نقطة ، مزخرفة (IIIc) .

عندما يُوحد بين هذه المعطيات المختلفة لمجموع الكهوف المعروفة ، يحصل على صورة متماسكة ودالة على تنظيم الكهوف .

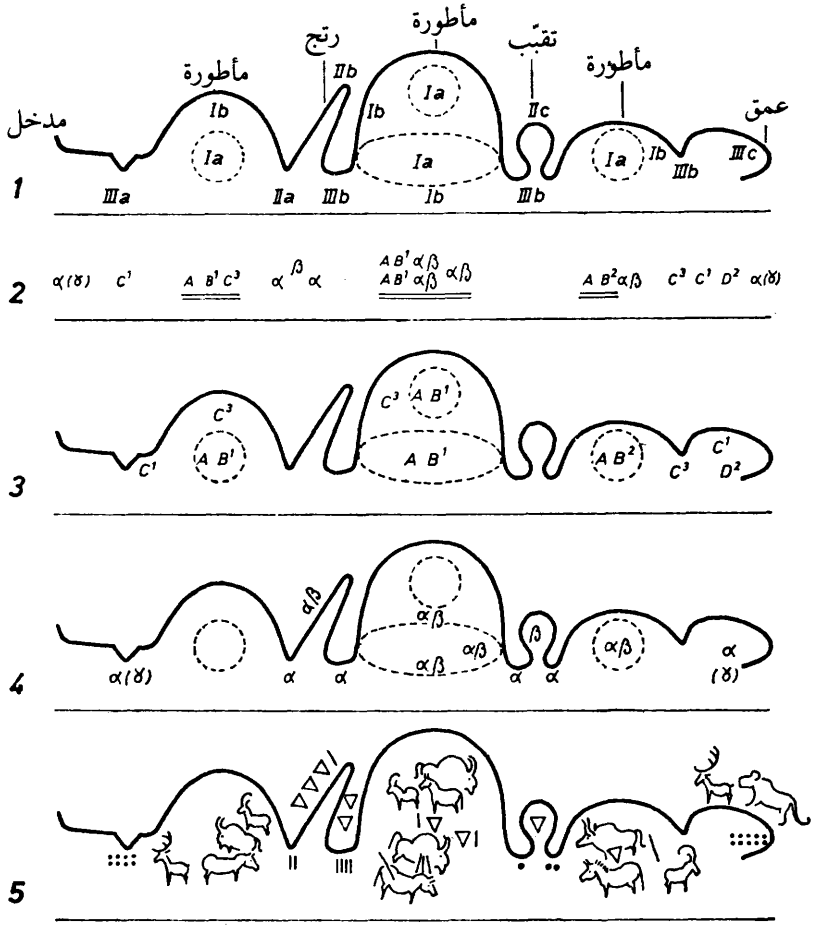

صورة رقم 8

صورة طوبوغرافية لتجمعات الصور الجدرانية

1 ـ مواقع ممكنة للصور .

2 ـ صيغة تصويرية لمجموعة من ثلاثة مجموعات حصان ـ بيسون (B^1) وتجمع حصان ـ أرخص (B^2) ـ أيل ـ وعل ـ سنور .

النسبة المئوية للمواقع الجدرانية

	Ia	Ib IIb IIc	IIa IIIa	IIIb	IIIc
حصان	56	26	4	8	5
بيسون	87	9	—	2	1
أرخص	89	11	—	—	—
اشارات β	26	64	—	5	2
اشارات α(γ)	17	45	11	12	12
وعل	8	61	10	13	8
أيل	1	47	20	18	13
ظبية	4	68	14	12	2
ماموث	12	59	10	13	3
رنّة	20	47	6	24	3
دب	15	50	—	15	20
وحيد القرن	-	64	—	9	27
سنور	20	53	—	13	13
سمكة	11	33	33	—	22

ويلاحظ أن الحصان قد وضع في المركز وعلى محيط التجمعات ، وتمثل البقريات حوالي 90% من الأجزاء الجانبية والمركزية ، و80% من الاشارات

→

3 ـ الاندماج الطوبوغرافي للحيوانات .

4 ـ الاندماج الطوبوغرافي للاشارات .

5 ـ تصويب احصائي لديكور جدراني .

http://al-maktabeh.com

β في المأطورات (المحيط بالأخص) وفي الرتج . ولمواضيع الفئة (وعل ، أيل وظبية ، ماموث ، رنّة) نسب مئوية ضعيفة في الموقع المركزي وتسم كلها قمة متميزة تقع على المحيط . وتقدم كلها من 13 الى 24% من مواقع المسافة ويلعب الأيل دوراً كحيوان العمق . وليس لصور الفئة D (دب ، وحيد القرن ، سنور ، سمكة) ، بسبب قلة المواقع المعروفة ، إلا قيمة نسبية ، ويناظر توزيعها مركزاً هامشياً وتشكل مع الأيل حيوانات عمق من أقوى النسب المئوية .

إذا كان من الصعب تأويل معنى التوزيع الحيزي للصور الجدرانية، فإن تكرار هذا التوزيع لا يترك أي مجال للشك . ومن الجليّ أن البيسون أو الأرخص يلعبان دور الممثلين الرئيسيين في التجمعات لأنه على أكثر من 70 مغارة دُرست ، لم يغيبا عن أكثر من ثلاث مغارات . ومن الثابت أيضاً أنهم يحتلان في أغلب الحالات (أكثر من 90%) أفضل المساحات المزخرفة . ويبدو واضحاً أيضاً أن الحصان يحضر دائماً بجوار البقريات أو في نفس تجمعاتها ، وُهذا ما يحمل على الاعتقاد بأن هذين الحيوانين قد يكون اما البطلين الرئيسيين أو الخصمين الأساسيين في التشكيلة التصويرية . ويشهد توزيع الاشارات α وβ في آن معاً على تشابه مبالغ فيه بين الحصان والبيسون (تقع 90% من اشارات في Ia ، Ib ، IIb وIIc) وعلى إيثار تمركزها في الرتج حيث تتجمع أحياناً في عدة نماذج (كونياك Congnac ، لا باسيغا La pasiega . .) .

ووضع الماموث غامض بعض الشيء ، لأنه لا يحضر في كافة الكهوف ، وهو ينتمي ظاهرياً الى المجموعة C ، ولكنه يجتاح كافة المأطورات المركزية في إقليم الايزي des Eyzies (كومباريل Les Combarelles ، برنيفال Bernifal ، فون ـ دو ـ غوم Font-de-Gaume . روفينياك

Rouffignac) ، لدرجة يصعب معها أحياناً تحديد موقعه . وفي بك ـ مرل Pech-Merle ، في لـوت ، من الـواضـح أنـه مـوضـوع محيـطي كـما في الاردش .

ولا تتميز مواضيـع المجموعـة C والمجموعـة D الا بازديـاد تواتـرها في الأعماق . ولقد لاحظ القس برويل عدة مرات ان السنـور ووحيد القـرن والانسـان كانـوا يتكررون بكثـرة في الأعماق . ويبـرز في الواقـع ان هذه المواضيع الثلاثة ، التي يمكن أن يضاف اليها الدب ، تحتل الأعماق بشكل أكثر تواتـراً من حيوانـات المجموعـة C (باستثنـاء الايل) ولكن تـواترهـا الأقصى هو في وضعية هامشية في التجمعات المركزية . والوعول والـظبيان هي بوضوح حيوانات المحيط (61 و68%) . ويقدم الانسان أفضل حضور له في الأعماق (57%) ، ويعثر على أقصى صوره المدهشة في هذه الـظروف (تروا ـ فرير Trois-frères ، غابيللو Gabillou ، لاسكو Lascaux) .

لقد وصلنا الى النقطة التي قد يكون المسافر الكوكبي بدأ فيها يتمثل أن الكنـائس الأرضية قـد نظمت مكـانيـاً وفق سيستـام يعكس بعض النـظام الميتافيزيقي ، وتوجد اشارات α مع حيوانات A في الوسط مع اشارات β وحيوانات B (لقد تم احياناً ابدال الاشارات بالنساء والرجـال) . وتحتل اشارات α وحيوانات C وD وغالبية الرجال الفُسَاحـات ويبدو أن بعضهـا يفضل الأعماق . وتسمح بعض شواذات الاحصاء الطوبوغرافي بـأن نغني قليلاً هذا الهيكل ، وتتعلق بحيوانات مجروحة وبأيـد مطبوعة على الجدران بالمرسام ، وبوجود اشارات α على مقربة من حوادث المسيرة .

والجروح هي أكبر دليل على التعاويذ السحـرية ، فيكـون رجال العصر الحجري القديم قد جرحوا صورة الحيوانات ليؤمنوا نجاح صيدهم . ويبدو أن واقعـة أولى لم تثير الانتبـاه : إذ تمثل الحيـوانـات المجـروحـة ، في الفن

الجدراني ، 4% من صور الحيوانات . ويكون رجال العصر الحجري القديم بالتالي إما قد تخلّوا في 96% من الحالات عن مشروع صيدهم ، وهذا أمر عبثي ، واما أنهم صوروا حيواناً واحداً للمجموعة كلها ، وهذا ما يضعنا بعيداً عن التعاويذ الساذجة لصياد يدخل المغارة ليملأ مخزن ـ طعامه وليرسم بسرعة بيسوناً مطعوناً . وهذا ما يبعد أيضاً فرضية ان الصور قد تمت وفق الحاجات .

ومن المدهش أن تظهر الجروح على حيوان أو اثنين لكل مأطورة ، وثمة مجموعات لا توجد فيها أية اشارات وان تقترن ، بأغلب الحالات ، بإشارات من مجموعة α . مثلاً ، شأن حصان لاسكو Lascaux ذي « السبعة سهام » مع جروحه المسيلة على خاصرته وإشارة معقوفة على رقبته (صورة 7) ، أو شأن البيسون على صلصال نيو Niaux ، والذي يحمل ثلاثة جروح على جنبه وقضيبين على رقبته (صورة B9) ، وأيضاً شأن جدرانية بيك ـ مرل Pech-Merle السوداء لبقرة مجروحة معلقة بثور يحمل على جنبه خطين من الخطوط الصغيرة . ويبدو بالواقع أن الاشارة الانثوية والجروح كانت رموزاً قابلة للتبادل فيما بينها كبيسون برنيفال Bernifal الصغير المنحوت (صورة C.9) الذي يحمل على كتفه إشارة بيضاوية يرافقها قضيبان صغيران ، وهي إشارة يمكن تعيينها سواء كفرج أو كجرح .

والايدي موضوع آخر تم استنفاده بكثرة . إذ قد يكون رجال العصر الحجري القديم قد أطبقوا باطن يدهم ، اليسرى بشكل عام ، على الجدار ، وأحاطوها بالجأب الأحمر وثاني أوكسيد المنغانيز . وفي مغارة غارغاس Gargas ، أحصي أكثر من مئة يد كهذه ، ويظهر على عدد كبير منها اصبع أو عدة أصابع مشوهة ، ولقد دخلت هذه التشوهات ، بفضل عدة أمثلة عراقية لأرامل تقطع سُلام أيديها ، عند فقدهن لأزواجهن ، في

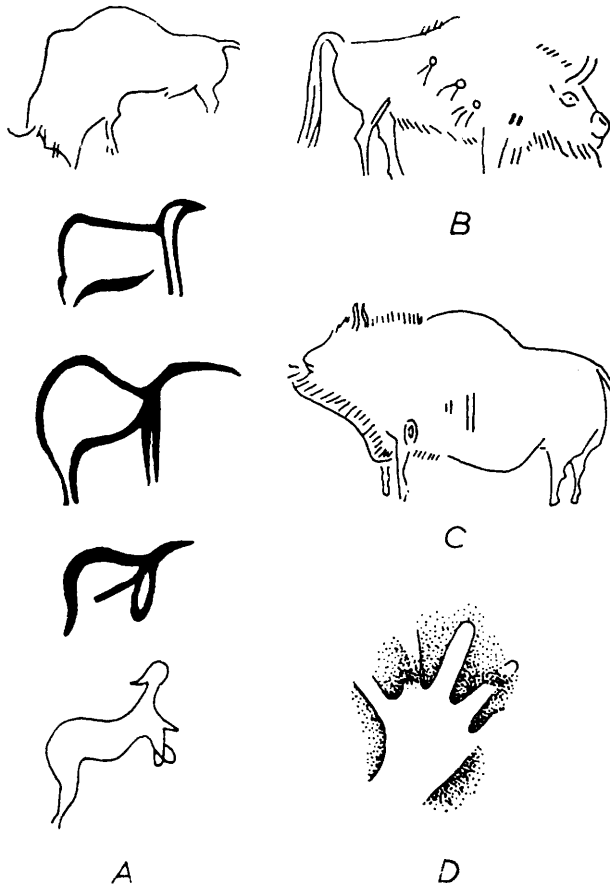

صورة رقم 9

A ـ بك ـ مرل : رسوم لنساء وبياسين .

B ـ نيو : بيسون مرسوم بجروح وعصي .

C ـ برنيفال (دوروني) : بيسون موسوم بفرج وعصي .

D ـ غرغاس : يد بأصابع مصححة .

أدب ما قبل التاريخ كعادة غريبة من ذلك العصر . والحال فقد يكون أسلوب الايدي السالبة قد تم بإطباق ظاهر اليد على الجدار وليس باطنها ، وبالإضافة الى ذلك يبدو في مغارة غارغاس ، ان « التشوه » لم يصب إلا الأصابع التي يمكن طيها لوحدها أو مع مجموعة أخرى بسهولة ، وان الأمر يتعلق على الأرجح بنوع من كود code للصيادين . والحال ، فإن لمختلف صيغ التشوه التغيرات العددية نفسها التي لصور حيوانات المغارات الكلاسيكية[1] . إضافة إلى ذلك ، فإن يدي غارغاس Gargas ومغارة أخرى مجاورة (تيبيران Tibiran) هما الوحيدتان اللتان تصوران وتقدمان عدداً من التشوهات ، وتقدم الكهوف الأخرى أيدي كاملة منفردة أو في مجموعات صغيرة (الكاستيّو El-Castillo ، بيك ـ مرل Pech-Merle ، فون ـ دو ـ غوم Font-de-Gaume . .) . وثمة وقائع أخرى غريبة : فالأيدي بشكل عام هي صغيرة وأنثوية وحتى انها طفولية . ويعثر عليها في المواقع التي تظهر أقصى تواتر للاشارات β ، سواء كانت حاضرة أم لا . ومن المهم أن نرى أيضاً أنه يمكن لإشارات α ان ترافق الأيدي (بيك ـ مرل) . وعدد مواقع الأيدي أضعف من أن يحمل اليقين (20) ، ويبدو أنها يمكن أن تكون في حالتي غارغاس Gargas وتيبيران ، بدائل رمزية عن الحيوانات ، بينما في أمكنة أخرى ، وبالأخص في بيك ـ مرل ، أمكنها أن تكون بدائل لإشارات β .

وربما يمكن الذهاب الى أبعد من ذلك بقليل . إذ تترافق المجموعة α ، في الوضعية المركزية (I) ، الفروج ، والجروح ، والأيدي . وغالباً ما تجيب في وضعية خارجة عن المركز (III) على أول انقباض للكهف وعلى

(1) A. Leroi-Gourhan, «Les mains de Gargas, Essai pour une étude d'ensemble», Bull. de la soc. préhistorique française, t. LXIV, n° 1, 1967, p: 107-122.

al-maktabeh
المهتدين
http://al-maktabeh.com

الانكماشات المتتالية ، وآخر الانغمادات في عمق المغارة ؛ ويعثر عليها قرب الشقوق أو الرتج محشوة أحياناً برموز المجموعة β . ويمكن التساؤل ، عما إذا لم يكن لشكل هذه الحوادث الطوبوغرافية ، في نظر رجال العصر الحجري القديم ، معنى أنثوي ، وإذا لم تكن المجموعة α ، في هذه المواقع ، مكملة للكهف نفسه .

وإذا أخذ في نتائج التحليل الطوبوغرافي الخام ، يبدو الكهف عندئذٍ كعالم منظم بحق . ولا تلاحظ تفاصيل السيستام الرمزية ، ولكن يشعر انها ترتكز على تمثلات يفترض ترتيبها فكرة تتجاوز بكثير الفكرة القائمة عنه . وكان يمكن للملاحظة عينها أن تتم لو أن منظري المقارنة ، بدلاً من أن يقارنوا تفكير الاوسترالي بالمقياس الأوروبي ، قد وهبوا للحظة نعمة أن يفكروا أوسترالياً .

التحليل الموضوعي للمحراب

هل يمكن تنشيط الرسالة التي تركها رجل الكهوف قليلاً ، من دون أن ندخل اليها عناصر حديثة ؟ لقد ثبت اليقين بأن هناك تنظيماً شاملاً ، ويمكن المباشرة بتحليل المواضيع التي تعالجها كل فئة طوبوغرافية والبحث عن الدلائل التي تربطها بالكل . ويمكن أن ينتظر من هذا البحث بعض التعمق ، ولكن يجب أن لا ننسى أنه لا يمكنه أن يقود الى وصف وقائع دقيقة (اختفت مع كلام ممثليها) ، وان نحترس بعد ذلك لواقع أننا لا نملك أكثر من 200 موقع وأقل بقليل من 3000 صورة ؛ وان الضمان الاحصائي يلعب بشكل غير متساوٍ وان بعض المواضيع لا تؤلف إلا عدداً ضئيلاً من الحالات .

التزاوج

لا يترك تزاوج الاشارات أي مجال للشك ؛ وترافق اشارة β عادة ، في

موقع I ، اشارة α مكملة لها ؛ وقاعدة التزاوج هذه هي التي تسمح لنا بأن نعتبر الجروح والأيدي كمعادلات لإشارات الجماعة β . ويظهر باستمرار تزاوج آخر ، هو تزاوج الحيوانات ، إذ يُبرز واقعاً مهماً جداً : كل حيوان من المجموعة β (بيسون أو أرخص) يقابله عملياً الحصان باستمرار (231 موقع I للحصان ؛ 236 موقع I للبيسون والأرخص ، أي 70% من مجموع مواقع I مضافاً اليها كل الحيوانات في موقع المحيط) . فالموضوع الرئيسي إذن في فن العصر الحجري القديم هو موضوع ثنائي يربط الحصان مع البيسون أو مع الثور البري . ويقرن هذا الموضوع الحيواني بالإشارات التي تحتل نفس الوضعية (I) أو موقع مشابه (II) ، اشارات ترجع هي أيضاً الى موضوع مزدوج يعود أصله الواضح الى تمثل الرموز الذكورية والأنثوية . وتبعد جداً عن تمثل الطريدة المسحورة أو عن التقليد الفظ لسيرورة الاخصاب .

ويظهر غالباً التزاوج A+B في شكل بسيط (بيسون + حصان) ، ولكن ، في المغارات التي تَكثُر فيها الصور يلاحظ أنها تمثل أزواج الأزواج : ذكور البيسون وأناثها في مقابل الفراس والفحول . وإذا كان من الصعب التمييز بين الفحول والفراس لغياب الاشارات الجنسية الأولية ، فإن الخصائص الجنسية الثانوية بالنسبة للأرخص والايليات والوعول قد سجلت بشكل لا يترك أي مجال للشك . وفي طارمة لاسكو ، يحيط برتل من البقر عدد من الأحصنة الصغيرة وتواجه رتلاً من الثيران يجابه حصاناً وحيداً ؛ وفي الرتج ، على بضعة أمتار ، بقرة تحيط بها أحصنة صغيرة تجابه إشارة أنثوية تواجه في الجدار الآخر ثوراً أسود كبيراً يجابه حصاناً وإشارة ذكورية متشعبة . وتعدد الأمثلة في جنوب ايطاليا كما في فرنسا أو اسبانيا يُفهم أن الموضوع الكامل يرجع الى الصيغة التالية : B اناث ـ B ذكور + A اناث ـ

A ذكور . ويبرز هنا أيضاً ان تفكير العصر الحجري القديم متين جداً .

من الصعب تحديد العلاقة بوضوح بين المجموعة αβ والمجموعة A-B ؛ مع انها مفتاح رموز العصر الحجري القديم . ولأنها بالتحديد مركز السيستام ، تبدو لنا محاولة نزع القفل بالقوة بأي مفتاح عمومي من العراقة عملاً متهوراً . وعلينا أن نتحاشى أيضاً خلق علائق احصائية ظاهرة وان نبسط كثيراً فكرة مارستها خلال عشرين ألف سنة شعوب مختلفة جداً . لقد كان لاسترالي الاورينياسي عن مجدلي مورافيا Moravie فكرة تعادل باختلافها الفكرة التي كان بإمكان كالابريي[1] Calabrais العصر الوسيط ان يكونوها عن المسيحية بالنسبة الى دانماركيي القرن العشرين ، مع ان كل واحد منهم يستخدم الشيم الأساسية عينها . ويتغير موضع الاشارات الحيزي بشدة بالنسبة الى الحيوانات ؛ ويمكن أن يعثر عليها على صور الحيوانات ، حولها أو منفصلة عنها ، وأحياناً مجمعة معاً في أقرب الرتج ، بشكل لا تحمل الطوبوغرافية معه أي تحديد لتسلسلها .

لم تتوضح بعد بدقة طبيعة العلائق بين الاشارات والحيوانات ، ولكنه من الجلي أن هذه العلائق موجودة . وبالواقع ، من المستحيل أن نتخيل أن الاشارات والحيوانات تعود الى سيستامين دينيين مختلفين ، متتاليين ، أو متساوقين : إذ أن التوزيع الجغرافي المتسق للسلسلتين الرمزيتين ، وتطورهما المتزامن ، وبنية التجمعات المكانية ، ووجودها على قطع الأثاث يفرض الاندماج في سيستام رمزي وحيد . ويمكن صياغة مختلف الفرضيات حول الصلات بين الإشارات β-α والحيوانات B-A ، لا بل حول تمثيل إشارات α للحصان واشارات β للبيسون أو العكس . ويحتوي السقف الكبير في التاميرا Altamira مثلاً عدداً من البيسون واشارات β ، ولكن يحتوي

(1) سكان منطقة كالابر الإيطالية.

حصانين فقط واشارتين متشعبتين . ويحمل عظم منحوت في ايستوريتز Isturitz على احدى جهتيه بيسونين موسومين بإشارات متشعبة ؛ وعلى الجهة الأخرى امرأتين موسومتين أيضاً بنفس الإشارة . وأكثر غرابة أيضاً مجموعة الرتج الصغيرة للنساء ـ البيسون في بيك ـ ميرل حيث تعبر صور البيسون والمرأة بسلسلة من الوسائط (صورة A-9) . ومهما يكن ، فمن التعقل الا نخلط كثيراً بين المعاينة والتفسير : وبالاضافة الى ذلك سيبرهن فحص حيوانات الفئتين C وD أن السيستام التصويري يتجاوز كثيراً التفسير الثنائي .

الحيوانات السائدة

يحضر الحصان في كل زمان ومكان في العصر الحجري القديم ؛ وتتغير حيوانات المجموعة B وهناك « محاريب بيسون » و« محاريب أرخص » . يمكن لأسباب جغرافية أو مناخية أن تكون قد لعبت دوراً ، ولكن يبدو على الأخص أن تطور التسلسل التاريخي هو السبب . وفي الأسلوب II ، لا يعرف من بين أكبر المجموعات التي حفظت الا مغارات أرخص (بار ـ نون ـ بار Pair-non-Pair ، لاموث La Mouthe ، غارغاس Gargas) . وفي الأسلوب III ، تندر محاريب الأرخص نسبياً (لاسكو ، Lascaux ، فورنو ـ دو ـ ديابل Le fourneau-de-Diable في الجنوب الغربي) ؛ ويكثر عددها في الكانتابر Cantabres واستوري Asturies ، ويقتصر وادي الرون Rhône عليها . وفي الأسلوب IV ، ما عدا تيجا في الدوردوني Teyjat المتأخرة جداً ، فإنه لا يعثر عليها إلا في اسبانيا وايطاليا فقط .

ويغيب البيسون ، كحيوان مسيطر ، عن الأسلوبين II وIII وهو على العكس الحيوان المطلق عملياً في اللوار في البيرنيه ، في الأسلوب IV . ويمكن التفكير في هذه الحالة الأخيرة ، ان الأمر يعود الى ابتعاد أحد

الحيوانات ، على أن الأمر ليس كذلك ، لأننا نرى ، وهذا واقع غريب جداً ، عدة مغارات أرخص من الأسلوب III كمغارة لاسكو ، غرغاس ، تحتوي تركيبة بيسون ، على الأقل ، منفصلة عن الأخريات وتحمل عدة مغارات من الأسلوب IV ، شأن مغارة كومباريل Combarelles ، فون ـ دو ـ غوم Font-de-Gaume ، نيو Niaux ، والتاميرا Altamira ، تركيبة واحدة على الأقل يشكل الأرخص مركزها .

لم تحدث هذه التغيرات بمحض الصدفة . ففي لاسكو Lascaux يظهر البيسون الاضافي أربع مرات ، عند طرف كل تجمع من تجمعات الارخص الكبيرة ، وفي نيو Niaux ، حيث يتجانس الأسلوب بشدة ، يظهر الأرخص مرتين ، معزولاً تماماً عما بقي ؛ وخصصت مجموعة الأسلوب III في أبو Ebbou في الاردش L'Ardèche للارخص ، ولكن زائرين مجدليين حفروا بيسونين من الأسلوب IV ، أحدهما عند كل طرف من التجمعين الأساسيين . وليس هذا ما يسهل الوشيمة العامة ومن جديد ، لو وُجب دراسة المحاريب المسيحية أو البوذية ، من دون أية معرفة بمضمونها الديني ، فلن يستخرج على الأرجح أي جدول أوضح من هذا ، ولكن ، وكما لدينا هنا ، ستظهر التغيرات مرونة وغنى التمثلات الذهنية .

ورغم كل شيء ، يشكل التزاوج الأساسي ، وازواج الازواج ، ومن ثم مضاعفة المجموعة B الى بيسون مسيطر ـ أرخص مكمل ، أرخص مسيطر ـ بيسون مكمل في الأخير ، تركيبات متلاقية . وثمة تركيبات أخرى لا تظهر إلا في المغارات التي تتعدد فيها الصور ويتضاعف تأليفها ، شأن لاسكو Lascaux ، روفينياك Rouffignac ، نيو Niaux ، لي تروا ـ فرار Les trois-Frères : وتتغير نسبة أفراد كل نوع بطريقة يجب أن تكون ذات دلالة . في روفينياك Rouffignac مثلاً ، في السقف الكبير المرسوم ، تتغير

كثافة البياسين ، والأحصنة ، والماموث والوعول من منطقة لأخرى ، مع ان التركيبة الأساسية تتكرر في كل مكان . وفي نيو ، يتغير عدد البقريات والأحصنة النسبي من مأطورة لأخرى ، وكذلك الأمر عينه في لاسكو ، كما في تروا ـ فرير .

الـ « حيوان الثالث »

من المتعذر شرح هذه الأشياء ولكنها تبقى حتى الآن بسيطة نسبياً ، حيث يتعلق الأمر بإدخال حيوان ثالث . وبالواقع ، ينعقد التزاوج الأساسي عادة بحضور حيوان من المجموعة C ، وغالباً ما يكون وعلاً أو ماموثاً ، وأحياناً أيلاً أو ظبية (اسبانيا) . ويصور هذا الحيوان على الهامش ، أو يكون أصغر من غيره في غالبية الحالات : ظبية سقف التاميرا ، وعول انغل ـ سور ـ لانغلان ، والرأس الأبيض Cap Blanc وإبّو، ونيو (صورة B.10) ، بار ـ نو ـ بار ، وأيائل لاسكو ، ولاباسيغا ، بينـدال Pindal ، وماموثات فون ـ دو ـ غوم ، كومباريل ، روفينياك ، وبيك ـ مرل Pech-Merle (صورة رقم A.10) .

تتغير التركيبات من مغارة لأخرى ولكنها تبقى دائماً متماسكة . ففي نيو Niaux مثلاً ، ينفصل في المأطورة 3 ، بيسون كبير يرافقه حصان صغير ، وحصان كبير يلتصق به بيسون ووعل صغيران ، ويعلو وعل كبير بيسوناً وحصاناً أصغر منه . وفي المجموعات المنحوتة ، في روفينياك ، قلص كل من البيسون والحصان الى صورة واحدة تضمها طبقة حقيقية من الماموث . وفي بيك ـ مرل ، يظهر الجزء الأول من الجدرانية السوداء مجموعة أرخص ـ حصان يحدها ماموثان ، ثم مجموعة بيسون ـ حصان تحيطها نصف ـ دزينة من الماموث (صورة A-10) ، ثم يختفي الحصان ناحية الشمال وتتكرر مجموعة بيسون ـ ماموث خمس مرات .

يجب أن نضيف أن الموقع يتعقد أحياناً أيضاً وان حيواناً رابعاً وخامساً يحضران على جوانب التأليف : وحيد قرن ، أيل ، ستور تبعاً للحالة ، ولكن يُدخل هنا في أول قاعدة طوبوغرافية لمواقع المواضيع C وD في الأطراف وعند حوادث المسيرة . في مغارة متشكلة في رواق أو تقدم مسيرة من صالة الى صالة ، يمكن لتجمع A-B ان يتكرر أكثر من عشر مرات ، ولا تحتوي مناطق العبور إلا على حيوانات من فئة C أو D (أيل ، وعل ، وسنور . . .) . (صورة 8) . وفي بعض الحالات ، تتضاعف هذه المواضيع الثانوية (ماموث ، ايليات) لدرجة تكتسح فيها الإطار الأساسي .

يتجاوز واقع الكهوف بكثير نظريات ما قبل التاريخ الكلاسيكية ، ولكنه واقع ارقام بدون أي كلام ، فلا نملك أية اسطورة لنبينها ولا أي طقس لنصفه . يُرى فقط في مغارة مثل مغارة لاسكو ، ان الارخص يحتل وسط الصالات ، مع أحصنة (A+B) واشارات (α+β) وان هذه التركيبة تتردد في الطارمة ، والرتج ، والمعبر ، وفي الجناح الأوسط وفي مقصورة السنوريات . ويُرى ان النسب تتغير وانه في مقصورة السنوريات لا يصير الزوج A+B سوى استرجاع غارق في صور المجموعة C.D . ويرى أيضاً أيائل ووعول عند مدخل ومؤخرة كل جزء ، والاسود أو وحيدو القرن في المؤخرة . ويرى أخيراً ، خطوط منقطعة وإشارات متشعبة تسيطر مع المجموعة C وD . هذا كل ما تقدمه الكهوف والذي يشكل لغتها المشتركة . وإذا لم يكن من السهل دائماً أن نفكك عناصرها ، فإن نحوها يتشابه في كل المساحة التي ينتشر فيها الفن الجدراني (صورة 11) .

الموضوعات النادرة

لا تصل بعض المواضيع الى عتبة الاحصاء ، ولكنها ذات طابع مدهش

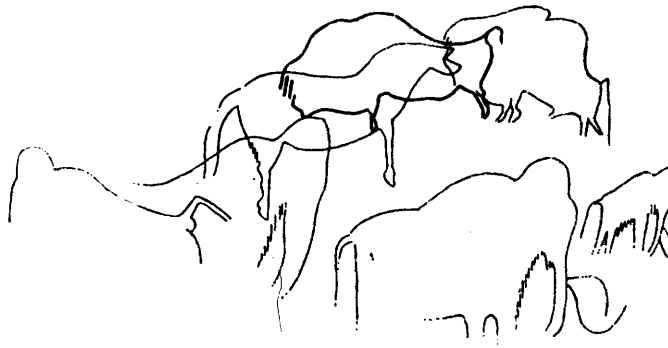

A

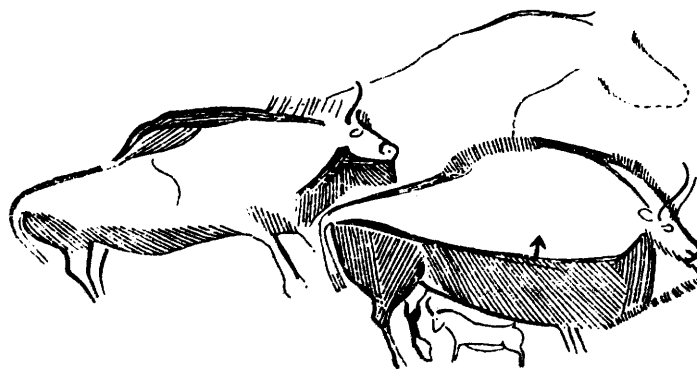

B

صورة رقم 10

A - بيك - مرل (لوت) : في المركز ، زوج من البياسين وأحصنة متراكبة ، محاطة بماموث .

B - نيو (أرياج) : زوج من البياسين، حصان ووعل (جرح على كتف البيسون الموجود على اليمين) .

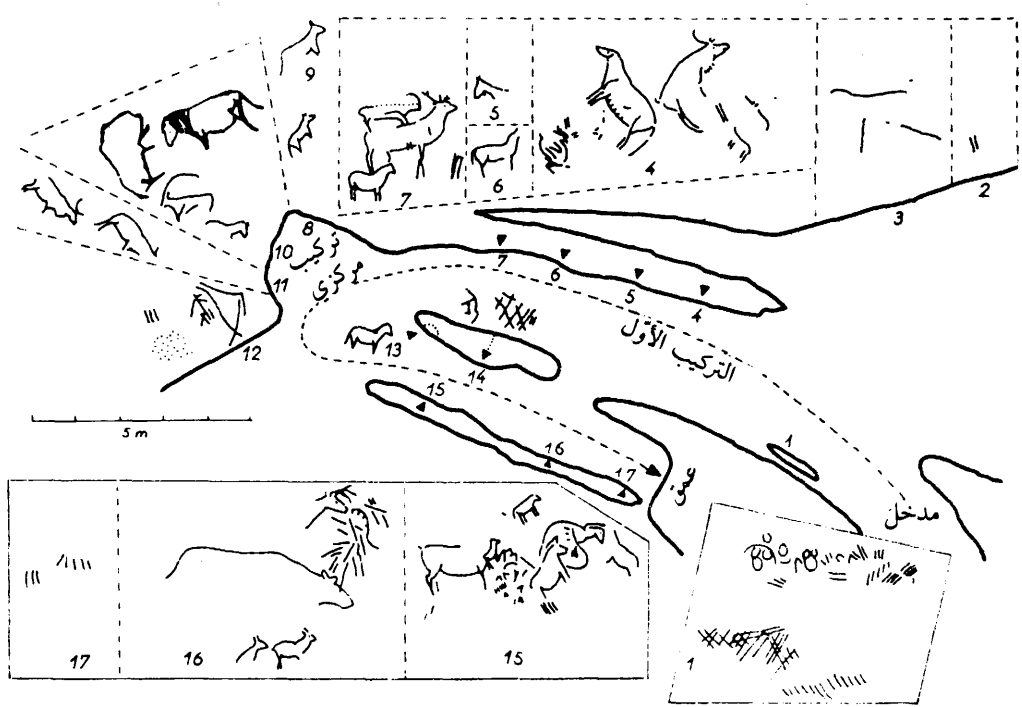

صورة رقم 11

مخطّط ورسوم مغارة لاس مونيداس Las Monedas (اسبانيا) .

لدرجة أنه يجب على الأقل أن تُذكر .

يُرى في عدة حالات ، كما في بئر لاسكو Lascaux ، رجل يلاحقه أو يهاجمه بيسون (لاسكو ، فيلار Villars ، روك ـ دو ـ سير Roc-de-Sers ، عظم منحوت في لوجري ـ باس Laugerie-Basse) أو يهاجمه دب ، أو مطعون بالحراب (بيك ـ ميرل ، كونياك Congnac) . ويعثر أيضاً ، على رجال « مقنعين » شأن « ساحر » تروا ـ فرير Trois-Frères ، بوجه عصفور ، وآذان وقرون رنة ،وجسم وذنب حصان ، وعضو جنسي محمول كعضو سنور ، والقائمتين الأماميتين لدب أو سنور ، وبقدمي رجل . وسواء تعلق الأمر ، كما يقال ، بساحر يرقص ، أو بـ « اله » المغارة ، فإنه تجميع لرموز المجموعات A ، C وD (رجل ، وعصفور ، ورنّة ، وحصان ، وسنور) موضوع في سنخ عميق ، في عمق المحراب ، وبالتالي في مكانه الطبيعي . في غابيو Gabillou ، تتكون آخر مجموعة في المغارة من رجل برأس بيسون يتصل بخط بإشارتين فرجيتين ، وهذا ما يعيدنا ، بشكل آخر ، الى فكرة ان الأكثر ذكورة يوضع في أكثر ما في المغارة من أنوثة .

ويكثر العثور على حيوانات قائمة أو مقلوبة ، وقد اعتبر ذلك شهادة على ممارسة الصيد بالتطويح . والفريد في الأمر ، أن أغلبية البياسين صورت

11-10 ـ تأليف حصان ـ بيسون وعل ـ رنة .

12 ـ اشارات مزدوجة .

2 ـ اشارات المدخل .

17 ـ من العمق .

7 ـ وعل ـ رنة من العبور .

16 ـ وعل ـ رنّة ـ دب ـ اشارات متشعبة من العمق .

15-14-1 ـ نقوشات وحدود غير مكتملة .

al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://al-maktabeh.com

قائمة (32 على 60 حالة) ، ووحدها الأحصنة صورت مقلوبة (6 على 7 حالات) .

ومن الغريب جداً أن يُعثر في لاسكو ، ونيو ، والتاميرا ، وبديلاك Bedeilhac وادورا Addaura في صقلية ، وفي كوستينكي في روسيا ، على حيوانات من دون رؤوس . وهي تقع في كل الحالات ما عدا كوستينكي ، حيث يتعلق الأمر بتمثال صغير ، في عمق أو على حافة المأطورة . وهذا تفصيل لا يُفسر كثيراً بذاته ولا تسمح ندرته بأن توضح التنظيمات بمضاعفتها . والأمر عينه بالنسبة لدب تروا ـ فرير ، ذي ذنب البيسون ، أو لدب روفينياك ذي ذنب السنور ، فهما يظهران ببساطة أن مضموناً كثيفاً كان يوجد خلف الصور .

وتنطبق الملاحظة عينها على « وحوش » الكهوف . إذ يوجد في بيك ـ ميرل مجموعة تدعى ، ولا ندري لماذا ، بـ « الظباء » ، ثلاثة أو أربعة أجسام منفوخة ، ذات قوائم محيطها غير محدد ، تعلوها رؤوس معزيات صغيرة جداً . وفي غابيّو Gabillou ، نشاهد « زرافة » ، نوع من البرنتصور ذي حدود غير أكيدة . وفي لاسكو ، هناك « القارن »[1] الشهير ، الذي كتب حوله الكثير ؛ ولم تكن قرونه الا ذنب البقرة التي سبقته ، على أن الحيوان نفسه يبقى مع كل غرابته . وفي برغوست (لوت) (Lot) ، هناك مجموعة تتألف من رجل استبدل رأسه بذنب ، وتحتل مخلوقات غريبة ذات حدود متموّرية جداراً مواجهاً لتجمع كلاسيكي حصان ـ بيسون ـ ظبية . وتقتصر الوحوش حالياً ، وهي كائنات خيالية أو حيوانات نادرة عُرِفت من خلال التراث الشفوي ، على بعض الكهوف بين

(1) قارن ، Licorne ، حيوان اسطوري بجسم حصان كان الاقدمون يفترضون له قرناً وسط الجبين .

الدوردني واللوت .

في نهاية الكشف الاحصائي للكهوف ، يبقى القليل مما قُدِم حول هذا الموضوع . ولا يعني ذلك أن رجال العصر الحجري القديم كانوا يجوبون بورع الأروقة التي تزينها البياسين والأحصنة وهم ينشدون الأناشيد العفيفة حول تناوب مبدأ الذكورة ومبدأ الانوثة . ومن العبث طرد الفراس الحبلى ، والثيران المسحورة ومصائد الأرواح والسحرة الراقصين أمام المراهقين المرعوبين إذا كان ذلك لاستبدالها بأحلام أخرى ؛ ولكن يوصلنا التدقيق في الزخرف الى اعادة اعتبار حقيقية للمتوحش سلف عالم ما قبل التاريخ ؛ والى إيضاح سيستام تصويري متماسك وغني ، ومرونة حيّة تضاعف المتغيرات دون أن تفسد المضمون . ولا يمكن بالطبع ، من خلال الوقائع المعروفة حالياً ، اعادة بناء المضمون من دون أن تتجاوز بقايا السيستام التي وصلتنا ، ولكن هل يتعلق الأمر بأن نبرهن عن مخيلة عالم ما قبل التاريخ ، او ان نتحقق من أنّ المتوحش الذي سبقه كان يملك اطاراً من التفكير مبنياً بإحكام ؟

فنّ الاثاث

اما وقد قدم الفن الجدراني هيكلية لسيستام تصويري متماسك ، ربما يمكن الرجوع الى فن الأثاث لنرى إذا كان بإمكان القواعد نفسها أن تعطي معنى ، فتسمح بذلك بمراقبة شرعية الملاحظات التي قامت حول الفن الجدراني .

يجب أن نذكر في البدء ان 80% من فن الأثاث ينتمي الى الأسلوبIV. قبل العصر المجدلي ، تقل الطبقات ذات الاعمال الفنية وتقع كلها تقريباً في غرب أوروبا . وفي الـ 20% من الأعمال السابقة على العصر المجدلي ،

ترتفع نسبة الصفائح المنقوشة والتماثيل الصغيرة عن 90% . بعبارة أخرى ، فإن كل أدوات الاستعمال أو الزينة التي يُعرف أنها تحمل تصاوير تنتمي تقريباً الى العصر المجدلي والأسلوب IV أو الحديث . وبما أن محاريب الأسلوب IV وفيرة ، تضع هذه الحالة المراقبة في ظروف إحصائية جيدة .

ومنذ الفحص الأولي ، ينقسم فن الأثاث الى فئتين كبيرتين من الدعامات : الصفائح والتماثيل الصغيرة من جهة ؛ وأدوات الاستعمال التقني عرضياً أو الزينة من ناحية أخرى .

الصفائح

إن أقدم الوثائق المنقوشة هي نقوش على صفائح حجرية أو شظايا عظمية . ولقد شوهد منذ عصر الشاتلبروني Chatelperronien ، منذ حوالي 35000 سنة ، ظهور حزازات متبعثرة ، في حزم أو مصفوفة بانتظام . وتقع في الاورينياسي Aurignacien أول الصور التي تمثل حيوانات مختصرة جداً ترافقها فروج وسلاسل نقاط أو عصي صغيرة . ولم يتطور الفن على الجدران الا فيما بعد عند مداخل الكهوف أو تحت الملاجىء ، وذلك اما لأن الأورينياسيين كانوا يجهلون بالفعل الفن على الجدار ، واما لأن أعمالهم ، وقد تمت في المنطقة المعرضة للتآكل ، قد اختفت ، إذن قبلياً ليس هناك أي فرق بين أولى الرقائق والمجموعات الجدرانية ، غير أن اندراج الصور الرمزي في كهف والذي يحتمل أن يفهم على أنه هو بنفسه انثوي رمزياً قد ينتج بشكل ثانوي .

وفيما بعد ، تتابع الصفائح والرقائق المنقوشة أو المرسومة وظيفتها ، الضئيلة حتى العصر المجدلي الوسيط ، والوفيرة جداً في الأسلوب IV القديم عند أوج كثافة الفن الجدراني ، ثم تحكم لوحدها بعد هجر الكهوف

العميقة . وبما أن الصفائح ترجع بدقة ، كما سيرى فيما بعد ، الى نفس نسق صور الكهوف ، يشاهد أن وجودها يخضع لخطوط عدة متغيرات . وفي بعض المناطق التي تغيب عنها الكهوف أو تكون غير مزخرفة ، يمكنها ان تكون قد قامت مكانها ؛ وتحل مكانها بالتأكيد ، في العصر المجدلي الحديث ، أما عندما تتوافر في الدوردني Dordogne أو البيرينيه في نفس مناطق وأحياناً في نفس مواقع المحاريب الديماسية ، فيجب أن تكون قد شكلت عدة موازية . ومضمون الرقائق الحجرية أو العظمية ، شأنه شأن التماثيل الصغيرة ، هو عينه مضمون الكهوف المزخرفة الصوري . ويبين الجدول أدناه بوضوح الموازاة بين الجدراني والأثاثي ذي الطابع غير التقني .

	جدران	تماثيل صغيرة ورقائق
	%	%
حصان	25	13
بيسون	17	11
وعل	6,5	5,2
اشارة انثوية	6,3	0,8
أرخص	5,8	4
اشارة متشعبة	4	3
رجل	3,8	5,4
رنّة	3	18

جرح	1,5	1,7
امرأة	0,5	10,3
متفرّقات	25,9	27,4

(النسبة المئوية على 1577 حالة) .

ويلاحظ فقط انقلاب في نسب الرنّة ، وقد فسر هذا في أعلاه : اذ كثرت الرنّة جداً في الفن في اللحظة التي تم فيها هجر الكهوف . وتُفسر نِسَب الرجل والمرأة بندرة الشخصيات في الفن الجدراني وبأن التماثيل الانثوية الصغيرة تقدم إسهاماً إحصائياً معتبراً جداً . ومن المدهش أن نلاحظ غياب الاشارات β عن فن الاثاث بينما تكثر في الكهوف ، وان التصويرات الواقعية تتبع معدلاً معاكساً .

ويمكن ، إذاً ، افتراض أن الرقائق والتماثيل الصغيرة كانت تشكل عناصر لمحاريب صغيرة من نفس طبيعة الكهوف . وسيكون لدينا أفضل برهان بالتأكيد عندما يعثر على احداها في مكانها ؛ وعلى هذا الأمر أن يكون قد حصل أكثر من مرة ، ولكن عندما يفكّر انه لا يوجد أي مخطط لأي موقع لرقائق أي مسكن ما عدا لاكولومبيير La Colombière في الإين l'Ain ، لا يمكن الا أن ننكس رؤوسنا مفكرين بلوجيري العليا والسفلى ، بإستوريتز ، بلاباستيد Labastide ، بليموي Limeuil ، ببدغول Badegoule ، بعشرات وعشرات وثائق ارودي Arudy وغوردان Gourdan ، وماس ـ دازيل وبالمواقع الأخرى التي تندثر اليوم من دون أي رقابة .

لا يمكن للبرهان إذن أن يأتينا الا من الأشياء نفسها ومن بعض الحالات الواضحة أكثر من غيرها . ويحمل عدد مرتفع نسبياً من الصفائح عناصر

تزاوج كلاسيكي : بيسون - حصان أو أرخص ـ حصان محفورة على نفس الوجه أو على الوجهين المتقابلين ، ويحمل كثير منها أيضاً الحيوان الثالث (صورة D-G, 12) . ومن أفضل الأمثلة صفيحة شالو Chaleux في بلجيكا ، المحفورة بثقب والتي تحمل على وجهها أرخصاً كبيراً وايلاً صغيراً وتحمل على قفاها حصاناً كبيراً ووعلين صغيرين . وحالة أخرى جديرة بالملاحظة هي حالة لوحة عظم بكارنا Pekarna ، في مورافيا Moravie ، الكبيرة والتي يحمل وجهها بيسوناً ووعلاً ويحمل الوجه الآخر ثلاثة أحصنة (صورة C.12) . ومع ذلك ، فإن الصور تكون منعزلة في أغلب الأحيان (صورة B.A, 12) أو تشكل مجموعات غير كاملة ، ولا يمكن أن لا نعتقد أنها كانت توضب مجتمعة في نسق ما . وكان من حظ لاكولومبيير ، في الإين L'Ain ، ان ترى رقائقها ، في 1913 ، قد نقلها البحاثان جـ. بيسو J.Pissot ول. مايت L.Mayet على مخطط أكمله هـ. موفيوس H.Movius عندما اكتشف عام 1948 حصاة جديدة محفورة .

وتشكل الوثائق حصتين مجمعتين عند طرفي الملجأ ، تتضمن حصة اليسار ثماني حصى مشكلة مجموعة البيسون (الذي يقال له « ثور مسكي ») ـ حصان ، وعل ، رنة ، وحيد قرن ، سنور ، دب ، أي ما معناه نفس مجموعة لي تروا ـ فرير في البيرنيه Pyrénées في نفس المرحلة . يضاف الى هذه الحصة عظمة منقوشة تحمل رنّة ودباً ورجلاً ، وكلها مواضيع من المجموعة C-D ، يمكن أن نجدها عند طرف أو في عمق التجمع . ولا تشتمل مجموعة اليمين ، على بعد اثني عشر متراً من الأول ، الا على حصى عليها كافة حيوانات اللائحة السابقة ، ما عدا البيسون الذي يمكن أن يكون قد اختفى (ووجد ما يخص مجموعة اليسار مكسوراً الى قسمين ، وقد رميت احدى شظاياه على بعد خمسة أمتار) . ويشتمل على

عظمة منقوشة تحمل رنة ، شأن الجماعة السابقة ؛ ولقد عثر على هذه العظمة ، في الشق الوحيد من الملجأ الشاسع .

في فورنو ـ دو ـ ديابل في الدوردني بيّن د. بيروني D. Peyrony ان الكتل المنحوتة كانت موضبة في مؤخرة الملجأ ، يحميها شيء يشبه السد ، ولوحظ في لوجيري العليا ، بعض الوقائع المشابهة تقريباً لها ، وفي ماس ـ دازيل Mas-D'Azil ، في سرداب بروي ، عثر وبفضل العناية الالهية على حجر ملتحم بالأرض ، يحمل حصاناً ، يلي العصر المجدلي : لقد وضع تماماً تحت بيسون صغير منقوش على الجدار .

التماثيل الصغيرة

وبالنسبة للتماثيل الصغيرة ، فإن المعلومات ليست أكثر اشراقاً من الأولى ، ولكن علينا الاعتراف ، أنه إذا كانت الصفائح ، الثقيلة ، والتي تفقد معناها متى قلبت ، قد حافظت غالباً على موقعها الأصلي ، فإن التماثيل الصغيرة قد تعرضت لتنقل كبير . ويكاد عدم وجود المخططات بالنسبة للواحدة وللأخرى أن يتساوى . ولقد قدمت المواقع الفرنسية عدداً قليلاً نسبياً منها ، ما عدا استوريتز حيث استعمل الصلصال الرملي الطري بوفرة ، بينما زودتنا المواقع السوفياتية والمورافية بالمئات . ويظهر أن في هذه البقاع التي كانت المساكن فيها عبارة عن خيم منصوبة على الطمي ، حلت التماثيل الصغيرة مكان الصفائح والمغاور . وليس من السهل القيام بجردة لذلك ، لأن غالبية الحيوانات ، ما عدا تحف فنية نادرة ، غير واضحة على الاطلاق . وبدون شك تسمح لنا بعض التفاصيل التي اختفت اليوم ، وموقعها من التجمع ، بأن نتعرف اليها . وفي كل حال ، في دولني فستونيس Dolni Vestonice وبافلوف Pavlov (في مورافيا) وكوستينكي وآنوسوفكا Anosovka وافديفو Avdeevo (في روسيا) تشتمل قائمة

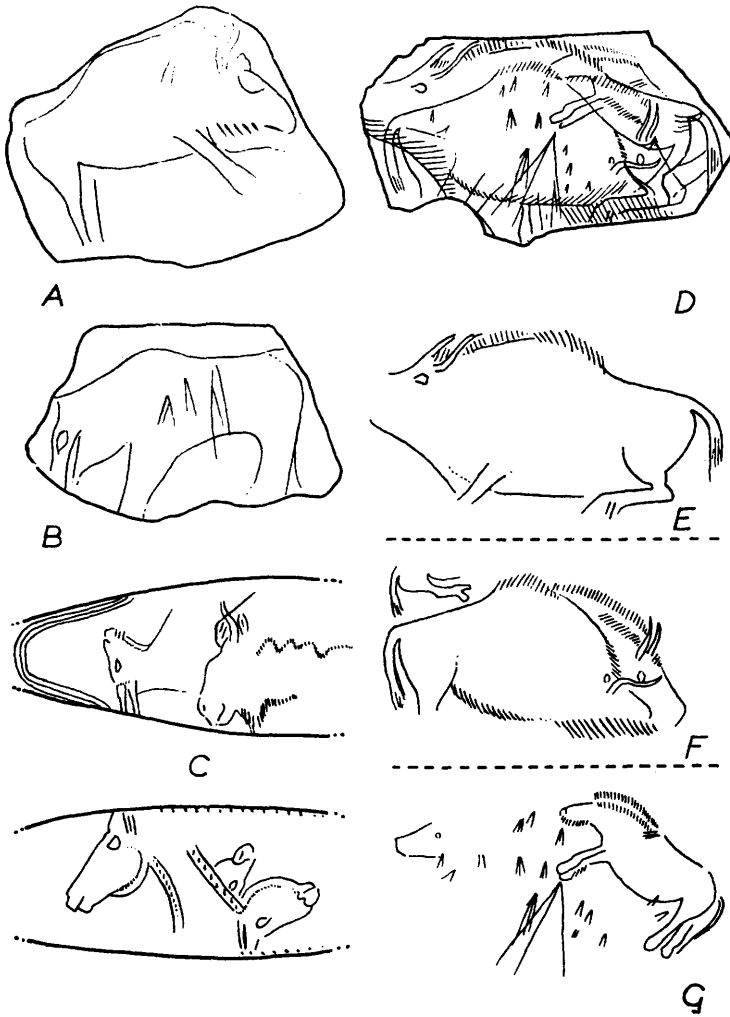

صورة رقم 12

A ـ استوريتز (بيرينيه ـ السفلى) : بيسون في أسفل ـ النقش .

الأنواع المصورة بالتأكيد على امرأة ، بيسون ، رجل ، حصان ، وعل ، ماموث ، دب ، سنور ووحيد القرن ، أي ما معناه نفس الممثلين الرئيسيين عندنا .

في غونرسدورف Gönnersdorf ، في رينانيا Rhénanie ، عثر على عدد كبير من الرقائق في بلاطة احد المساكن المجدلية . ولم يتم التعرف على أي تجمع حتى الآن ، ولكن اعمال التنقيب لم تنته بعد .

ثمة يقين حول وجود محاريب صغيرة « يمكن حملها » ولم توضح لنا بعد صلاتها بمحاريب السراديب الكبيرة ومنها ما كان ، بالتأكيد ، في المساكن وغيرها ، كما في لاباستيد «Labastide» ، وقد عثر عليها بعيداً عن الضوء ، عند مدخل محراب جدراني .

لم تثر تماثيل الحيوانات اهتمام المنظرين كثيراً ، بينما يوجد ، حول التماثيل الانثوية أدبيات وفيرة حتّى ليتكون لدينا أحياناً انطباع بأن الحس النقدي قد فُقد حتّى عند باحثين هم في العادة على قدر من الجدية ؛ واسم فينوس Vénus هذا الذي اعطي لها ذو دلالة . فعندما نقرأ المشروعات حول اشكال فينوس الاورينياسيات المتاكة ، وعن فينوس الفاسقة الأكثر هشاشة في لوجيري السفلى ، وعندما نرى أي براهين قادت الاناسيين ليقابلوا

→

B ـ لوبورتل (ارياج) : دب منقوش .

C ـ بكارنا (تشكوسلوفاكيا) : رقيقة عظمية منقوشة .

D ـ استوريتز : رقيقة منقوشة ، مجموعة صور

E ـ بيسون متجه الى اليسار .

F ـ بياسين متجهة الى اليمين .

G ـ حصان ، الحيوان الثالث واشارات جروح .

حسنات فينوس لسبوغ بفينوس هوتنتوت[1] ، وعندما نرى كل ما قيل حول الفراس الحبلى و« الاناث التي يغطيها ذكور ضباع » كل ذلك من قبل مؤلفين ، يكونوا جميعهم علمانيين ، يأخذنا الندم على الوقت الذي كان فيه السولتيريون يعبرون برموز محجوبة عن الواقع البيولوجي الذي يملكون عنه بالتأكيد أفكاراً طبيعية جداً .

لا ترجع صور الأسلوب II وIII الانثوية الى الحقيقة التشريحية أكثر مما تستطيع نساء بيكاسو ان تخدمن كمواضيع لتحديد النمط الانـاسي للمرأة الفرنسية المعاصرة . وما يعطيها قيمتها التشكيلية الكبيرة هو انها ترجع الى القيم التصويرية في مرحلتها ، بين العصرين الغرافيتي والسولتيري ، عندما كانت الحيوانات تستدعى بخط منحن من الرقبة حتى الظهر وتعلق عليه بعض التفاصيل المصغرة عند الأطراف . ومن الجلي ، إضافة إلى ذلك إن القانون التصويري قد عُجن وعجن عبر عصور من النسخ المتتالية ، وتكفي مقارنة تفاصيل تماثيل كوستينكي وويلندورف Willendorf ولسبوغ Lespugue لملاحظة انها تتبع نفس النمط البدئي archétype ، بينما صورة لسبوغ الرائعة قد صنعت بأحجام عُدلت بواسطة التداول لدرجة أنها لو أخذت من وجهة الحقيقة التشريحية لكانت بلا معنى . وما قيل عن الاهات الخصوبة هو تافه ولا يُفسر شيئاً : فالأديان كلها أو تقريباً كلها تعتبر الخصوبة كظاهرة مستحبة ، وليس جعل المرأة رمزاً لها أمراً مميزاً . ولا تميل مقارنة صور العصر الحجري القديم مع تماثيل بلاد ما بين النهرين أو تماثيل نيكارغوا Nicaragua الا إلى البرهان على وجود النساء في بقاع الأرض هذه . وفي الحقيقة لا نعلم شيئاً عن المعنى العميق الذي كان رجال العصر

---

(1) هوتنتوت : شعب جنوب افريقي ذو بشرة ضاربة الى الصفرة (المنهل) .

http://al-maktabeh.com

الحجري القديم يعطونه لفينوس عندهم التي يمكنها أن تكون جيونوس «Junons» [1] أو « بروسبرين »[2] .

وما يبدو أكيداً ، هو انه كان يوجد أيضاً صور للرجال ، كاملة أو تقتصر على الوجه ، كما في لوسل Laussel ، في براسمبوي Brassempouy ، أو في عدة مواقع مجدلية . من المحتمل إذن ، أن تكون التماثيل قد شكلت من ناحية على الأقل ، أزواجاً ، وهذا ما يتوافق مع قاعدة الاشارات . ويقودنا هذا الاحتمال الى الكلام قليلاً حول « الخناثى » . ومن الضروري أن نبقى حذرين هنا أيضاً . إذ ليس مستحيلاً أن يكون رجال العصر الحجري القديم قد صوروا ، الجنس والجنس الآخر ، يجاور بعضهما البعض ، وثمة مثل واضح على ذلك على رقيقة دب لامادلين La Madeleine (صورة H.15) . فلدينا هنا رموز مزدوجة وليس صورة مخنثة . حتى انه يمكن وبنوع من الجناس التشكيلي أن يمثل تمثال ما ، منظوراً إليه من ناحية ، امرأة ومن الناحية الأخرى صورة رجولية ، بينما يبقى من الصعب القبول بأن رجال العصر الحجري القديم قد فكروا بشكل صحيح كل الأحلام التي ولدتها بقايا بعض الأحجار الغامضة .

مواد ذات طابع استعمال عرضي

من بين مواد فن الأثاث ، اعتبرت سلسلة كاملة على أنها تملك طابعاً ربما يكون « طقسياً » ، ولكن عملياً رغم كلّ شيء . وهذا هو حال العصي المثقوبة ، والدافعات ، والمساوط ، والمصاقيل والضواغط والمخارز والقناديل والعصي نصف ـ الدائرية ، والرماح الصغيرة والخطافات

---

(1) جيونو : الهة الطبيعة الانثوية في الدين الروماني تماثل « هيرا » اليونانية .

(2) بروسبرين : الهة جهنم في الدين الروماني (روبير . م) .

الكبيرة ، التي لم تكن زخرفتها موضوعاً لدراسة اجمالية ، بـل لأعمال تهتمّ ببعض المـواد أو بنمط من الزخـرفة . ولم تكن الأسـماء التقنية التي أطلقت عليها ، إلا مجرد رفاهية ، أو تخيل صرف .

يبـدو ان الخلفية التشكيليـة لهذه المـواد هي نفسها خلفيـة الكهـوف أو الرقائق والتماثيل الصغيرة ، مع مميـزات خاصـة يجدر تفحصهـا . فقائمـة أنواع الحيوانات أطول بقليل ، ويُعثر فيها على الظباء الأوروبية ، منفردة ، (شاموا ، اروس) ، ويرى أحياناً أيضاً ذئب ، أو أفعى ، وكلها حيوانات نادرة أو لم تكن موجودة في الفن الجدراني .

ومن ميزات هذه الأشياء ، انه الى جـانب الصور المعـدّة جيداً ، والتي يمكن مقارنتها بأفضل صور الفن الجدراني ، هناك الكثير من الصور البيانية المهندسة لدرجة أنه يمكن أن نعتبرها كأوتاد زخرفية حقيقية . ويقود التحليل المقارن الى ربطها بمواضيع واقعية . ولقد بين القس برويل Breuil انه يُعثر فيها على الايليات والأحصنة والبياسين والأسماك ، التي تشكل خلفية الفن الاستعمالي المجدلي . ويحملنا التحليل الاحصائي على أن نذهب أبعد من ذلك وأن نلاحظ أن الزخرف البياني يصيب بشكل خاص القطع التي فرض خطر زوالها إعادة انتاجها على عدة نماذج شأن الرماح الصغيرة والخطافات ، والتي تتحطم بسرعة عند الاستعمال . بشكل انه خارج التغيرات الخاصة بكل فئة ، يمكن تقسيم العتاد الاستعمالي الى أشيـاء للاستعمـال الطويـل ذات الزخرفـة المعدّة . وأشيـاء للاستعمـال السريـع المعرض للزوال ذات الزخرف البياني .

العصي المثقوبة

ان العصي المثقوبة هي الفئة الأكثر أهمية . ولقد أدهشت دائماً بزخـرفها الغني في الغالب ، البحاثين الذين أطلقوا عليها ، فيما مضى ، اسم « عصي

الامارة » من خلال سيرورة مجانبة على الاطلاق ، ومن دون أي برهان معقول يسمح بتدعيم هذه الفرضية . وقورنت فيما بعد بمادة من الأسكيمو لها نفس الشكل تستعمل كرافعة لتقويم الرؤوس المقطوعة من قرون الرنّة على الساخن ، وتبدو هذه الفرضية مدعومة أكثر من الأولى .

وزخرفة العصي المثقوبة غريبة جداً . ونسبة مختلف المواضيع ، من بين خمسين قطعة حفظت بشكل معقول هي التالية :

ـ في 10 حالة ، للقبضة شكل ذكوري ، لا يدع أي مجال للغموض .

ـ في 30 حالة ، القبضة مزخرفة (بمعزل عن الشكل الذكوري عند الأطراف) برموز من المجموعة A ، C أو D : حصان ، وعل ، أيل ، ظبية ، رنّة ، ماموث ، سنور ، دب ، رجل ، سمكة ، أفعى ، عصفور ، واشارات متشعبة .

ـ في 7 حالات تتموضع البياسين عند الثقب ، أو في قاعدة المقبض أو عند طرف أقصى ، ينتهي في عدة حالات بتشعبات محززة هي بيان لزوج البياسين الذي يوجد مثل كامل عنه في المادلين La Madleine (صورة 13 ، A ، B ، D) .

والمقبض الوحيد المتجاذب هو عصا لامادلين التي يحمل وجهها رجلاً ـ وحصاناً ـ وأفعى وإشارات متشعبة ، ويحمل قفاها رأسي بيسون (صورة C.13) .

وبالتالي يبدو أنه من شبه الأكيد أن العصي المثقوبة تصور نفس التجمعات الرمزية التي يصورها فن الجدران : مقبض قضيبي ـ الشكل مزخرف بحيوان من المجموعات A ، C، وD + ثقب يتاخم صور من المجموعة B . ويحتمل أن يكون لهذا الشيء استعمال رمزي صرف ، مع

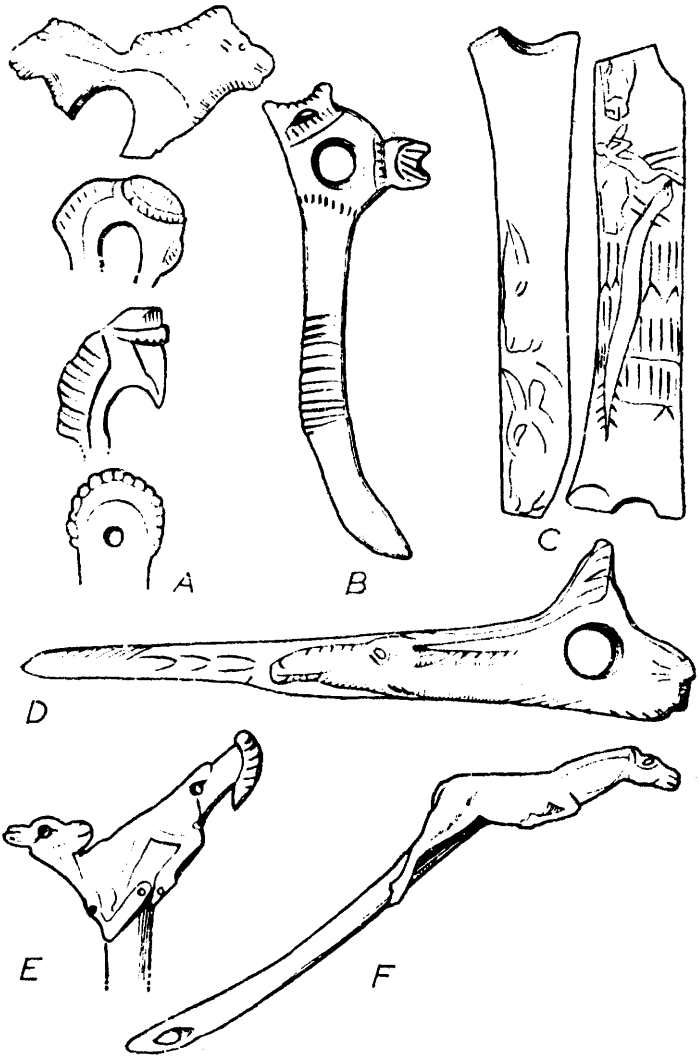

صورة رقم 13
عصي مثقوبة

أنه يمكن أيضاً لعملية عطاء الشكل للمقبض أن تكون قد أدركت على أنها فعل تلعب فيه دورة التوافق بين رجل ـ امرأة ، حصان ـ بيسون ، رمح ـ جرح ، دوراً أساسياً . وعلى كل حال ، من الأكيد أن العصي المثقوبة كانت شيئاً مهماً جداً وتدخل في صميم رمزية العصر الحجري القديم .

الدافع هو شيء بعقاف أو بدونه ويُعتبر أنه كان يُستخدم لرشق الرماح الصغيرة ، كما يُعرف ذلك من أمثلة عُراقية . وهذا استعمال محتمل ، ليس إلاّ . وما هو أكيد هو أن تقطيع قرون الرنة التي شُذِب منها قد جهد في احترام الأجزاء التي قد تخضع لضغوط الالتواء فيما لو تمت ممارسة الضغط في منطقة العقاف . وكقاعدة عامة كان يظهر حيوان واحد ولا يقر التوزيع بأية انتقائية . على 30 قطعة (الحد الأدنى لقانونية الاحصاء) يحصى :

حصان	9	(صورة F-13) رنّة	3	سنور	1
وعل	6	(صورة E.13) بيسون	3	ماموث	1
سمكة	4	طير	2	رجل	1

---

١ ـ وج بياسين .

B ـ بياسين منمنمة ومقبض بطرف قضيبي .

C ـ على الوجه : رجل ، افاعي ، أحصنة ؛
على القفا : بياسين .

D ـ رنّة وبيسون .

A وC ـ لامادلين .

B وD ـ لوجيري السفلى ـ دافعات

E ـ بديلاك (ارياج) .

F ـ برونيكل (تارن ـ او ـ غارون Tarn -et-Garonne) .

al-maktabeh
www.
مكتبة المهتدين

وتمثل أفضل الدافعات « شادن » ماس ـ دارزيل Mas-d'Azil ، وعلاً صغيراً ، برأس مائل (لأسباب تقنية تعود الى صلابة قرون الرنة) وذنب يقوم على شكل حافة تنتهي بطيرين يشكلان عقافاً . ومع أن نمط الدافعات هذا يقدم متغيرات كثيرة (صورة E.13) ، يبقى موضوع التصوير غامضاً . ويبقى التصوير البرازي غائباً بشكل عام عن فن العصر الحجري القديم ولا أعرف الا مثلين يستحضران البراز . وهما سنور كابينة لاسكو Cabinet de Lascaux الذي يقذف ببوله Lâche un jet ، وهي عادة مألوفة للذكر الذي يحدد منطقته ، و « بياسين » التاميرا « الواثبة » الشهيرة التي تتدحرج في الغبار الذي رويَ قليلاً لتنطلق وتسم فيما بعد الأشجار والصخور . وتتفق هذه الممارسات مع رمزية الكهوف العامة في حين يبقى وعل ماس ـ دازيل حتى الآن صعب الفهم .

سواء أكانت الأشياء المعقوفة دافعات أم لا ، فإنها تسلك شأنها شأن جزء من الرقائق أو التماثيل الصغيرة في توزيع عددي قريب قليلاً منها . علينا أن نفترض إذن ، اما انها كانت تستخدم منعزلة وفق مناهج يصعب تخيلها على أساس التوثيق الحالي واما انها كانت تشكل جزءاً من التجمعات الرمزية .

وتتوارى الأشياء الأخرى عن الدراسة النقدية وفقاً للإطار المتبع هذا ، وذلك اما لأنها قليلة جداً ، واما لأن زخرفها البياني يفرض تحليلاً يتجاوز إطار هذا العمل ، فلا يمكن بالتالي إلا أن نشير اليها .

والأشياء المسماة مساوط فإنها لسانات عظمية ، منحنية في أغلب الأحيان وقد قطع جزؤها القريب بشكل ذنب سمكة . ويمكن أن يكون قد حفر على سطحها مواضيع تنتمي جميعها ، بالنسبة للأمثلة المعروفة (حوالي العشرين) الى المجموعات A ، C أو D : سلمون ، حصان ، رجل ، وعل ، رنّة ، وإشارات مسننة (صورة 14 من A الى E) .

والضاغطات في الغالب هي أطراف لرماح مكسورة وأعيد استخدامها لعمل بالضغط . وزخرفها هو زخرف الرماح الأول ، وكانت المكوكات على الأرجح ملاقط للإمساك بأداة صوانية . وهي ذات زخرف غريب ، مصنوعة في شكل بيضاوي يمتد بعدد ، ما يناظر على الأرجح اشارتين مزدوجتين . وتندر القناديل المزخرفة ، ويحمل قنديل لاموث La Mouthe (صورة A.15) وعلاً على وجهه الأسفل (عثر على كثير من القناديل على الأرض ووجهها الأسفل الى الأعلى) ، وقنديل لاسكو Lascaux له مقبض يحمل اشارتين من المجموعة α تماثل تلك التي نجدها في كل مكان في المغارة .

والعصي نصف ـ الدائرية هي شفرات ذات وجه مسطح ، شُذبت في أقسى مساحة من قرون الرنّة وكانت ملتصقة بها ، وجهاً لوجه ، وفقاً لنفس تقنية الخيزران المنشور . ويظهر زخرفها ان الأمر لا يتعلق بفئة من الأشياء ، ولكنها شهادات على طريقة تقنية : فللبعض منها زخرف معد ذي حيوانات أو رموز جنسية مزدوجة (صورة H.15) ؛ وللأخرى زخرف بياني شبيه بزخرف الرماح الصغيرة .

وتزخرف الرماح الصغيرة بيانياً ولا يُمكن غالباً فك رموزها . وترجع المواضيع الواضحة كلها الى المجموعة A أو C أو D : فتتعدد الأحصنة ، الاسماك والاشارات المتشعبة ، والايل والظبية والرنّة ووحيد القرن . والأمر عينه بالنسبة للخطّافات حيث تسيطر السمكة والاشارة المتشعبة . ويمكن لوجهة الزخرف هذه بأن تؤكد تماثل الرمح الصغير مع الرمز الرجولي . ولقد شاهدنا في الفن الجدراني أنه من المحتمل أن يكون الجرح رمزاً انثوياً . والخطّافات الكبيرة هي أشياء صغيرة متشعبة يتصل طرفها بلسان أو بزج . واستعمالها مجهول ورمزيتها مشكوك بها ، واليقين

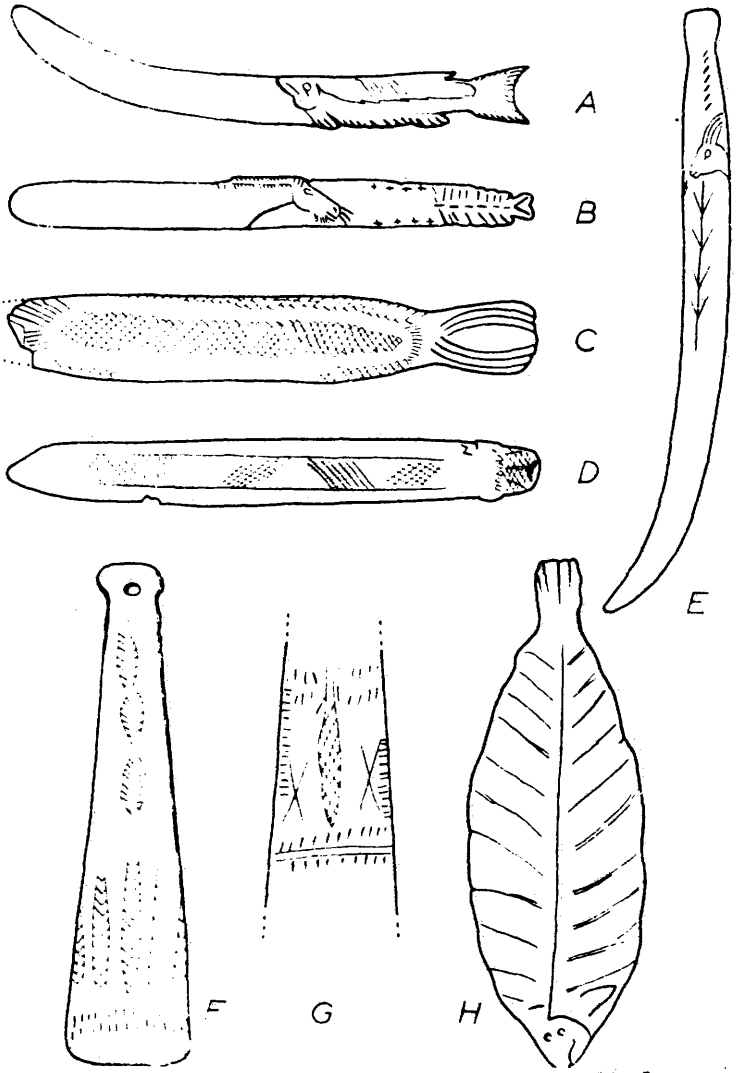

صورة رقم 14
مساوط

الميكانيكي الوحيد الذي يمكن أن نحصل عليه هو أنها لم تكن خطّافات كبيرة .

مواد التعليق

وتشتمل هذه الفئة على كل الأشياء ذات ثقب أو عدة ثقوب للتعليق ؛ ويحتمل بحق أن يكون بعضها نياطاً ويبقى استعمال الأخرى وهي حلقات أو دوائر مقطّعة فرضياً .

والحلقات عبارة عن دوائر بحجم قطعة نقود شُذبت من لوح الكتف ، وثُقبت في المركز . يتكون زخرفها العام من حزازات شعاعية تشكل تجدّلاً على محيطها . وتحمل على أحد وجهيها أو على الاثنين معاً صوراً تنتمي بشكل عام وبلا تمييز الى المجموعة A أو B أو C أو D : حصان ، بقرة وعجلها (صورة C.15) ، وعل (صورة D.15) ، شاموا رنّة ، ماموث ، رجل يهاجمه دب . ويمنع وجود الزخرف على الوجهين أن يرى فيها اطباقات أو أزرار ، ولا يؤمن موقع الثقب في المركز توازنها كنياط . وإذا شكّت بكوم على حبل مركزي يمكن لكل الحلقات التي نعرفها (حوالي الثلاثين) أن تقدم عناصر سيستام صوري متكامل ، ولكن لم يسجل أبداً انها قد وُجِدت مجموعة .

A ـ سلمون ، الايزي Eyzies

B ـ سلمون ـ حصان ، لوجيري ـ السفلى .

C ـ البندو ـ (اسبانيا) .

D ـ لوجيري ـ السفلى .

E ـ وعل واشارات ، استوريتز .

F-G ـ نياط مع (أسماك) . لوجري السفلى ومارسولاس Marsoulas

H ـ نوط بشكل سمكة موسى ، لسبوغ .

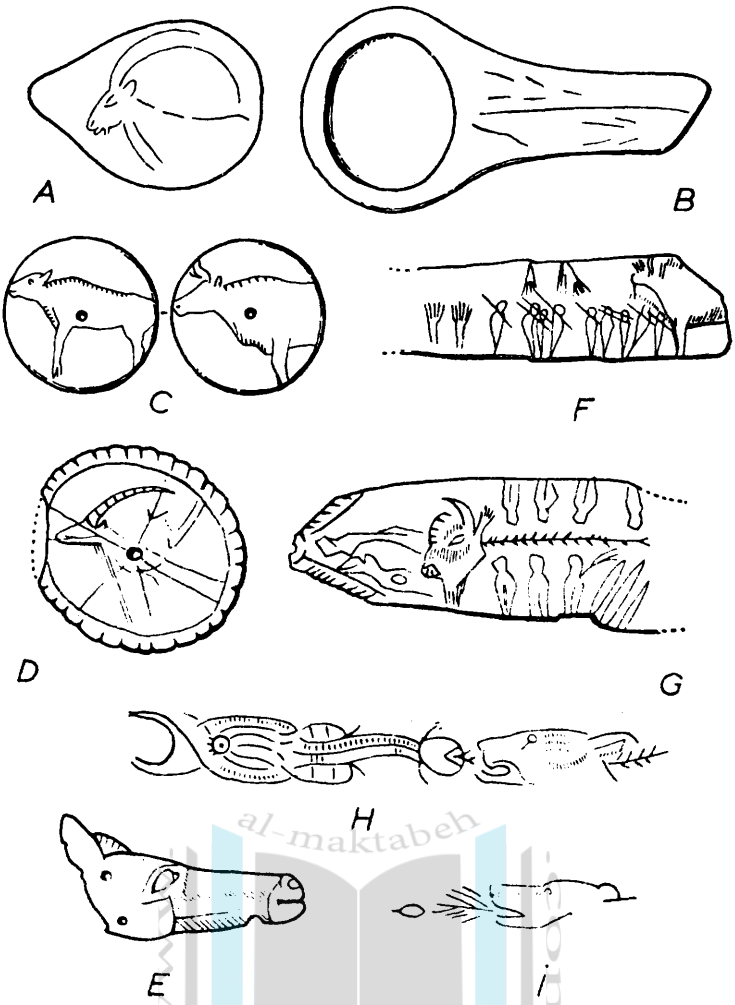

صورة رقم 15

قناديل

A ـ لاموث .

al-maktabeh
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com

والدوائر المقطّعة هي رؤوس حيوانات شُذبت في عظم لامي وثقبت بثقبين للتثبيت . وتمثل أغلبيتها أحصنة يُعتبر بعضها من تحف العصر المجدلي (صورة E.15) . وفي لاباستيد Labastide عثر على مجموعة فريدة متكونة من ثمانية ـ عشر رأس وعل ورأس بيسون . يبدو من الواضح إذن ، كما بالنسبة الى الحلقات ، أن العثور عليها منعزلة لا يعني بالضرورة انها لم تكن مجمعاً تجمعياً رمزياً . وتوافق لائحتها التصويرية (حصان ، بيسون ، وعل) موضوعاً مركزياً من الفن الجدراني في تلك المرحلة (الأسلوب IV القديم) .

تناظر النياط فئتين كبيرتين ، لكل واحدة منهما في نهايتها ثقب للتعليق . بعضها بيضاوية الشكل ، من الحجر أو من مادة عظمية تحيط بها حافة من الحزازات أو الاسنان (صورة F.16) مركزها مزخرف هندسياً ، (صورة H.G16) أو تحمل اشارات على شكل قائمة وزة كما في استوريتز Isturitz ، يمكنها أن تمثل على السواء جروحاً أو فروجاً . تمثل بعض نياط أوروبا الوسطى نساءً جانبية (صورة I.16) في أسلوب العصر المجدلي ، ويوجد أيضاً في سو ـ دو ـ برون (لوار) Saut-de-Perron نوط من الحجر نقش عليه أيضاً امرأة جانبية منقوشة في ذهنية الاسلوب IV (صورة J.16) . ويمكن أن يكون للنياط الممدودة ، كما في سان ـ مارسيل Saint-Marcel أو في

B ـ لاسكو ـ حلقات .

C ـ لوجيري السفلى .

D ـ برونيكل Bruniquel

E ـ حد مقطوع ، إستوريتز .

F وG ـ رقائق تصور رجالاً وبيسوناً ، الايزي وريموندين Raymonden

H ـ دب ورموز جنسية واقعية ، لامادلين .

I ـ دب ورموز جنسية مجردة ، ماسات Massat

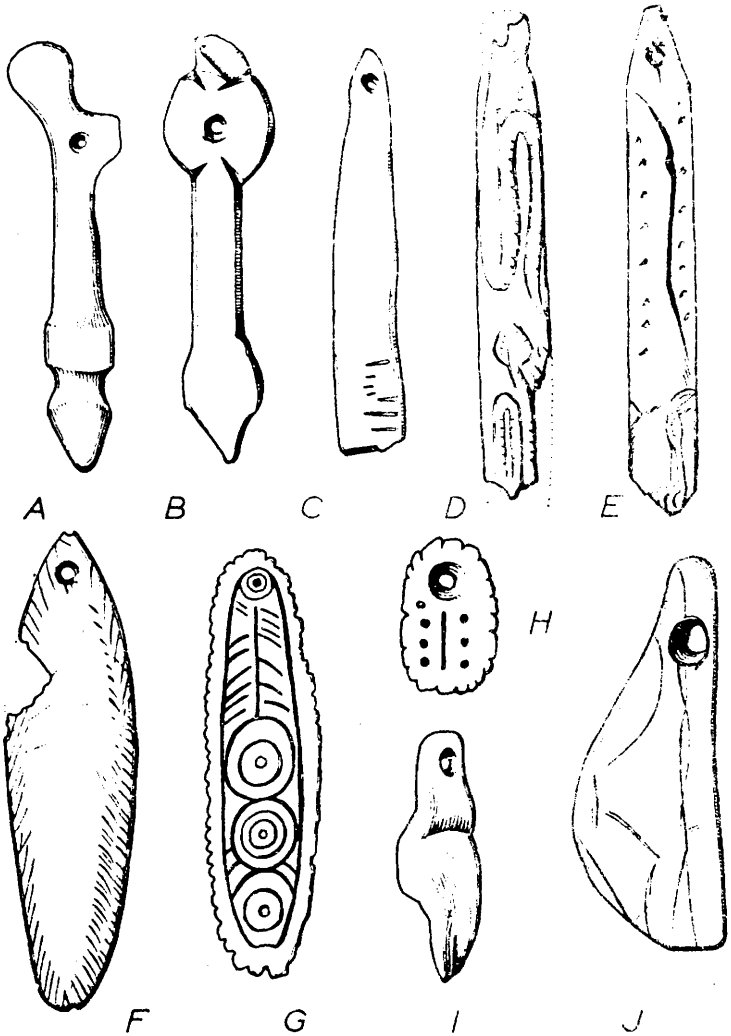

صورة 16
نياط طويلة

استوريتز Isturitz (صورة B, A.16) شكل قضيب وتحمل نياط أخرى أحصنة منقوشة وأسماكاً وأفاعي (صورة E-D.16) ، ويحمل سنّا دب دوروتي Duruthy في لاند ، فقمة والآخر سلمون . ويبدو بالتالي أن هذه الأشياء ترجع الى مواضيع رجولية . وعدد كبير منها ليس الا أطراف رماح مكسورة أعيد شذبها للتعليق (صورة C.16) ، ويبدو هذا متماسكاً ، مع ما استشف عن رمزية الرماح الصغيرة .

يبدو انه كان يوجد نياط ذكرية ونياط أنثوية . ومن الصعب أن نقول لماذا كانت تستعمل ، إذ لم يعثر في أي من النوعين على أي هيكل عظمي لرجل أو لإمرأة . ولا تسمح حالة تبعثر الآثار على أراضي العصر الحجري القديم وغياب التفحصات الدقيقة على الأخص بأي جواب . ثمة واقعة واحدة معروفة ، تقع في منطقة خارج العصر الحجري القديم الاوروبي ، ولكنها من نفس المرحلة وبظروف مماثلة . وفي مالتا Mal'ta ، قرب بحيرة بيكال ، في سيبيريا ، نبش عالم ما قبل التاريخ الروسي جيرازيموف Gerasimov عدة مواقع للخيم ، عثر فيها على أداة ذكورية مع صور عصافير ، وأداة أنثوية مع

A ـ سان مارسيل .
B ـ استوريتز .
C ـ طرف رمح صغير ، استوريتز .
D ـ أفاع ، لسبوغ Lespugue .
E ـ حصان ، استوريتز ـ نياط بيضاوية .
F ـ استوريتز .
G ـ سان مارسيل .
H ـ لوجيري السفلى ، نياط أنثوية .
I ـ بيترفلس
J ـ سو ـ دو ـ برّون Saut-du-Perron

تماثيل صغيرة لنساء منفصلة في كل جهة من المسكن . ومن المحتمل على الأقل أن يكون هناك في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا ، تقسيم للحلى بين الجنسين أيضاً .

وفي الخلاصة ، تشكل أسنان الحيوان ، الأصداف ، النياط المؤلفة من مادة عظمية أو من الحجار تشكل فئة مهمة من الأشياء والتي لا يبدو أن معناها الديني يدع مجالاً للشك ، بينما تبقى قيمتها الحقيقية افتراضية ، ويعثر عليها غالباً مختلطة بحلي عثر عليها في مكانها ، ولكن لا يمكن حل معانيها إلا إذا حصلنا على مَواد أكثر ثقة . ويبدو مع ذلك أن ذات سن الايل بالنسبة للاسنان ، والسبريات للاصداف ، والنياط ذات الشكل البيضاوي أو الطويل بالنسبة لأشياء التعليق ، ترجع بوضوح الى رموز ذات طابع انثوي أو ذكوري .

الطقوس

قد يكون الكلام عن طقوس العصر الحجري القديم مثيراً ، ويخشى أن يخيب أمل القارىء مرة أخرى ، بطابع معلوماتنا الهيكلي والمدمر للتقاليد . فلا شيء يُعرف عن طقوس العصر الحجري القديم ، لا في المساكن ولا في الكهوف وهذا أمر طبيعي وسليم لأنه يتعلق بالحركات والكلام وهي أمور لا تتحجّر . ونملك بضعة آثار يمكن تأويلها بشتى الطرق ، مع حظ ضئيل بأن نقع على التأويل الصحيح .

في الكهوف ، يعثر أحياناً على مستودعات أشياء شأن الصوان الذي عثر عليه صدفة في استوريتز Isturitz (المغارة السفلى) ، وفي لاباستيد Labastide ، وفي آرسي Arcy (مشكوكة في جدار الصلصال) ، وعلى قطع أو ركام من الجأب ، في كونياك (لوت) Cognac ، وفي لاسكو ، Lascaux ، وعلى قناديل أو صفائح ربما تكون قد استخدمت لتركيز المشاعل

كما في لاسكو ؛ وعلى أشياء مخبأة في الزوايا ، كما في فارنكور Farincourt (المارن الأعلى) وفي لاباستيد (بيرينيه العليا) ، وفي بورتل Portel (ارياج) . يمكن أن يرى البعض أنها نسيت ، والبعض الآخر يرى أنها أقيمت لرغبة في حماية الأشياء الثمينة ، أو حتى انها قربان « طقسي » .

ذكر أحياناً ، كشهادة على طقوس مسارية ، آثار الأقدام (أعقاب فتية) التي تظهر على صفيحة من الطين المتخثر في توك دودوبار Tuc d'Audoubert ارياج (Ariège) ، في صالة بباسين الصلصال الشهيرة . فالمراهقون الذين قيدوا الى هناك للمسارات قد رجعوا القهقرى على أعقابهم .

من الأكيد أن الأطفال قد دخلوا المغارات ، فقد تركوا بصماتهم في بيك ـ مرل Pech-Merle ، في نيو Niaux وفي الدان Aldène (هيرو Hérault) . وفي نيو كما في بيك ـ مرل تقع هذه البصمات الفتية خارج المجال الذي يطرقه البالغون وفي مستنقعات وأجزاء رطبة . وبدلاً من طقس مساري ، فإننا مدعوّون الى التفكير في الحرية التي كان يتنقل فيها الأطفال في الكهوف ، لأننا في الحالة المعاكسة ، يجب أن نعتبر « ملقنين » الأطفال الذين يلعبون في برك الحدائق العامة بملء أقدامهم ، أو على أعقابهم في الأيام الماطرة .

يمكن أن يستثنى من حجج الطقوس « السحرة المقنّعون والراقصون » لأنهم في موقعهم في موكب الكهوف الرمزي ؛ وربما تترجم وقفتهم المائلة الى الأمام وقفة واقعية ولكن لا يمكنها أن تبرهن عن سيرورة طقسية .

وتقع أكثر الأمثلة إثارة في مونتسبان Montespan ، وهي حيوانات الصلصال و« الصيد » . فقد يكون الدب بدون رأس قد وُجد مع جمجمة

al-maktabeh

جبيس بين قائمتيه الأماميتين (وللأسف لم تُحضر أية وثيقة عند العثور عليه أو بعده بقليل) ، وقد يكون جلد طازج قد طرح على الحيوان ، مع رأسه الملتصقة ، وذبح باختراقه بضربات الرماح الصغيرة . والترسيمة متماسكة ومعقولة ، ومن المؤسف أنه لم تتم عن قرب دراسة مساحة الصلصال التي لم تمس . إلا أنه من الأكيد والكافي أن حيواناً بدون رأس ، دباً ، قد وُسِم ببضع طعنات وجهت إليه عن قرب (السقف منخفض جداً) . وهو الحيوان الثاني من دون رأس المعروف في مؤخرة مغارة . وهو مجروح شأن دببة تروا ـ فرير المنحوتة ، ومن دون رأس شأن الدببين المرسومين على سقف مغارة ايكان Ekain ، في غويبوزكوا Guipuzcoa . إضافة الى أن أحدهما مجروح من كتفه . ويوجد في رواق منفصل ، منخفض لدرجة أنه يجب الزحف فيه ، «الصيد » حيث يُرى وعلى طول عدة أمتار : مقدمة حصان رائعة ، لجانبه سحابة من الثقوب وخطّان عاموديان ، وتخطيط لحصان تسمه بضعة خطوط عامودية وبعض الثقوب ، مع سحابة من الثقوب بجانبه أيضاً ، ثم حصان ثالث تغطي سحابة الثقوب جسمه ولكنها تتجاوزه كثيراً نحو الأمام ، وسلسلة من الخطوط العامودية أخيراً . وتسمح حالة الحفظ بدراسة اتجاه كافة الآثار : إذ لا يتعلق الأمر بتقليد للصيد ، بل بمجموعة رمزية (لها علاقة أكيدة بالصيد) ، وقد نُفذت مضطجعة على الجانب ومتقدّمة بالتدرج حيث رسمت الحيوانات والنقاط والعصي في آن معاً . بالنسبة للمجموع يمكن الكلام عن طقس قتل ، لأنه من الأكيد أنه كان صبغة دينية أكثر بكثير مما يمكن أن يتخيل ، على أنه من المستحيل أن نضع أمام الوثائق عشيرة تصرخ وهي تصرع نماذجها مطلقة عليها الرماح تباعاً .

من الأكيد أنه كان هناك طقوس ، وطقوس « متوحشة » إذا أردنا ، لكن

لا تقدم لنا الوثائق الا الدليل على وجود إطار لها . وكان هذا الإطار محترماً بشكل غير عادي ، مهما قيل ؛ ما عدا بعض الاستثناءات ، فلم تثقل الصور المتأخرة الصور السابقة ، وأقيمت في المساحات الشاغرة ، وأغلب الرسومات التي تمت فوق القديمة هي معاصرة ومقصودة . وعندما اكتشف المجدليون مجموع الأسلوب III في مغارة أبو Ebbou ، في الاردش Ardèche ، لم يخربشوا البياسين فوق الأرخص بل دسوها في المساحات الحرة . وفي باسييغا Pasiega ، وفي جبل كاستيّو Castillo بشكل عام ، يُرى رجال العصر الحجري القديم وهم ينقلون من صالة الى أخرى ومن مغارة الى أخرى مجموعاتهم التي تزداد حداثتها . وفي التاميرا Altamira ، يمكن تعقب ثلاث سلاسل متتالية على الأقل ، لم تتكدس فوق بعضها بل تشابكت فيما بينها حتى مؤخرة المغارة . وفي لاسكو Lascaux ، لم تبق المجموعات الكبرى على حالها فقط ، بل انها رممت ، والمحراب رمم مرتين على الأقل . ولقناعتهم بالحاجة الى جعل رجال العصر الحجري القديم بدائيين جدّاً ، بُنيت سلسلة من الأساطير المستعارة من وقائع استرالية أو بابو Papous ، وقد صفاها فكر الغربيين الذين لا يمكنهم أن يتخيلوا طبيعة انسانية لم تعجنها تفنناتهم الثقافية . وما يدهش في الكهوف ، هو على العكس وقار الديكور الذي قولب فيه رجال العصر الحجري القديم تعرجات الحجر وآلاف الشواهد على الاحترام الذي يكنّونه للآثار ، ويختلفون بذلك عن الموقّعين التالين الذين لا يُعدُّوا .

لم تُزر هذه المحاريب إلا نادراً ، هذا إذا لم يكن الا مرة واحدة . والمحاريب المفتوحة أكثر ، تحمل ، على العكس، آثار تردد كثيف . وتظهر هذه الآثار ، عند هامش الديكور الأساسي ، وعلى المساحات المعزولة ، والكتل ، وعند أسفل التصاوير الجدرانية ، وبواسطة الاحتكاك وصقل

عواميد الستلاغميت ، وعدد لا يحصى من الصور غير المنتهية ، والكشط البسيط في فصل وحزم ، والمحيط العنقي ـ الظهري للاحصنة أو البياسين ، التي تترك نفس انطباع نقوش النذور على جدران المعابد أو الكاتدرائيات . وفي التاميرا والكومباريل ولاس مونيداس وموث يحمل عشرون محراباً هذه الآثار . وفي لاسكو ، تتكاثر هذه الآثار بالمئات عند المدخل الذي كان قد اتلف عند نهاية حياة المحراب وخدم كمخرج لاشارات التردد هذه .

وإذا أُريد الكلام عن الطقوس ، فلن يكون ذلك إلا بالانعكاس ، شأن المسافر الكوكبي الذي سيلاحظ ان ابهام قدم تمثال القديس بيار قد بلي نتيجة للاحتكاك وان تواقيع لا تحصى تغطي قاعدته والجدران المحيطة به . ويبقى ذلك قليلاً لإعادة بناء بهاء الشعائر الكاثوليكية ، ولكنه تقريباً كل ما نملكه لإعادة سيرورة احتفالات العصر المجدلي .

الفصل الخامس

الدين في العصر الحجري القديم

بعد عرض المواد ، ماذا سيبقى من ديانة رجال العصر الحجري القديم ؟ قبل الرجل العالم L'homo sapiens ، أي قبل 30000 أو 40000 سنة ، ليس هناك ما يقاوم الفحص. إذ لا تتكيف الوثائق جيداً مع الدور الذي يراد لها أن تلعبه ، ويمكن لجماجم إنسان بكين والفكوك السفلى ودمية الكهوف أن تقبل تفسيرات عديدة مغايرة للممارسة الدينية . ولماذا ، بخصوص الدب ، وهو الحيوان اللبون الوحيد القادر على تعديل كثيف لهياكل من هم على شاكلته ، أن يكوّن هو من ترك آثاراً تقبل تأويلاً دينياً ؟ بين كل هذه الوثائق الغامضة ، يبقى القليل من الوقائع التي لا تقبل الجدل ، وهي متأخرة جداً . ولقد ترك إنسان النياندرتال ، في نهاية عدوه ، شواهد عن دفن موتاه ، وجمجمة أو جمجمتين موضوعتين في المغارات ، وبضعة كؤوس منقوشة على كتل من الحجارة . ويكفي ذلك لقبول أن ثمة شيء يحدث خارج المدارات المرتفعة للباليونتروبيين وسيأخذ أهمية كبرى فيما بعد ؛ وهذا لا يكفي على الاطلاق حتى للمباشرة بتخطيط إجمالي لسلوك ديني . أن يكون اللامعقول قد أُدرك بوضوح لهو أمر يعدُّ لافتراض قوي لصالح مفهوم ما فوق الطبيعي ، ولكن من المرجح أن لا يكون له المعنى نفسه الذي نعرفه منذ بضعة آلاف من السنين . ولا تقوم الديانة على الدين فقط ، ولكنها تستتبع موكباً من الوقائع الفيزيولوجية والنفسانية التي تخلق

حقلاً عاطفياً لا يكون فيه للتفسير العقلاني المكان الأول . ومن الافراط أن نحاول تطبيق نتائج قديمة من التفكير الثقافي لقلّة علاّمة على رجال البداية وان نبحث عن الهبات والتضحيات والعبادات في غياب وثائق لا يشك بها . وعلى العكس ، قد يكون من الافراط أن لا نقبل ببداية لما صار كونياً في العصور الأقرب عهداً ، وتكفي الوقائع المراقبة بشكل كاف ، للبرهان على أن ممارسات غير موجهة نحو تقنية الحياة المادية قد وجدت قبل الانسان العالم ، L'homo sapiens ، ولنسمّها ممارسات دينية لأنها تشهد على ممارسات تتجاوز الحياة الانباتية ، لكن لننتظر من اختصاصيي العصر الحجري القديم والمتوسط أن ينقبوا بشكل أفضل لنحوز على مواد قد تكون أكثر وضوحاً .

العصر الحجري القديم الأعلى

هنا ، توجد الوقائع ، العديدة جداً ، التي تبرهن أن الانسان العالم L'homo sapiens ، (أو سلفه المباشر) ، قد سلك منذ لحظاته الأولى كما يسلك الانسان الحديث . ولا تتعلق هذه الشواهد بالدين فقط ، بل تتعداه الى التقنيات ، والسكن ، والفن والحلي ؛ وتخلق ، بالتعارض مع ما سبق ، جواً ثقافياً نتعرف فيه بالحال على أنفسنا. وفي الحيز الجيولوجي القصير جداً الذي يفصل إنسان النياندرتال عن إنسان كرومانيون Cromagnon ، الذي يفصل بالتحديد الموستيريان Le Moustérien عن الاورينياسي Aurignacien ، أي من 60000 الى 30000 سنة قبل عصرنا الحالي ، تم عبور خطوة هي خطوة الترميز البياني . ويمكن أن يُفترض أن للباليونتروبي لغة مجردة ، ولكن يبقى ذلك مجانياً لأنه لا يوجد برهان على ذلك ، ومن اللحظة التي يزدوج بها التفكير اللفظي بعبارة بيانية ، تبقى الشواهد القريبة منا لدرجة أننا نتعرف بها على أنفسنا بسهولة مفرطة ونميل الى قراءتها كأنها

http://al-maktabeh.com

تصدر عن فنانينا . وبطريقة مشابهة لهذه الطريقة ، دافع بعض علماء ما قبل التاريخ في القرن الماضي ، الذين نفوا الفن الديني ، عن الفن للفن ، وحولوا الايزي Eyzies الى مونبارناس العصر الحجري القديم حيث يرسم تلامذة الفنانين الملتحين الماموث والنساء البدينات بين رحلتي صيد الدببة .

وفي الوقت عينه ، كان باحثون آخرون ، ليسوا أقل اخلاصاً وبدون شك اقرب الى الحقيقة ، يصفّون الاستراليين وينقلون ما بقي من قراءاتهم الى فن المغارات ، مع حفاظهم على بعض وثبات من اللامبالاة الفنية للمدرسة المناوئة لهم . وبرؤية صور العصر الحجري القديم بعين غربي صرف يلبس نظارات اسودت قليلاً في استراليا ، يُعثر على عالمٍ سهل الفهم وفي الآن عينه يتنافر فيه كلّ ما لا يجب أن يدرك . وبما أنه كان يراد التفسير ، فقد توصل الى صورة غير عادية ومسمّرة لإنسان العصر الحجري القديم الأعلى . والأخطر من ذلك ، انه من مؤلف الى مؤلف ، صارت الفرضيات حقائق . ويمكن أن نقرأ في كتب التعميم أغرب التأكيدات التي لم يحقق فيها ولم تنتقد أبداً ، كانت عند المصدر مجرد احتمالات ومنه جُرت الى خضم المسلمات . فرجل ما قبل التاريخ ، المقنع عن طيب خاطر بشكل ساحر ذي قرون ، كان يستسلم الى صيد إيمائي في المغارات ، ويغطي الجدران برسوم للفراس الحبلى والبياسين المسحورة والتزاوج الآدمي والحيواني والأكواخ والمرتدات والخطافات والافخاخ وخصوص (جمع خص) الأرواح . ويضع يده ذات الأصابع المشوهة على الجدار ، ويحيطها بالجأب ليُعلم على وقائع الحياة ما فوق الطبيعية القاسية ، ويقود تحت القبب الباردة المراهقين المساكين . وهذا ما غذى تقريباً الصورة المعدمة والبسيطة التي شُكلت عن ديانة الكهوف . ولم يكن من الممكن أن يخرج من العراقة المقارنة شيء آخر ؛ لأنه لا يمكن أن نستعير من الاستراليين والبوشمان

ميتافيزياءهم ، وكان يكفي للحس السليم والأمانة أن يمنعا تطبيق صورة دقيقة جداً على وثائق ما قبل التاريخ ، فلا يمكن أن نستعير سوى نتف من الوقائع المادية ، لا صلة بينها ولا مع البعد الثقافي .

وبالعكس ، تستتبع هذه البقايا نسقاً متكاملاً من التفسير بالسحر وبالطوطمية وبالشمانية تعطي مالطاً للمواد المتفرقة . وليس من الضروري أن نشدد على واقعة أن أيّاً من علماء ما قبل التاريخ الذين شيدوا جهاز ما قبل التاريخ الديني قد عرف الاستراليين أو أي بدائي الا من خلال توسط مؤلف وإن أيّاً منهم لم يعمق معرفته بأشكال السحر الا بمقدار ما يفسر بعض صور الكهوف .

يتعلق السحر دائماً بسيستام لتفسير الكون ، وترتبط خصائصه ، دائماً ، بهذا الجهاز الذي يتحكّم بإيقاعه وبتوجهه الفعال عبر عمليات معيّنة . وبينما لا تحصى تمثلات الجواهر ما فوق الطبيعية أو سيستام العالم فإن الشواهد السحرية تبقى عملياً نادرة ، لأن تلك العمليات لا تترك أية آثار . وثمة حظ أكبر في أن يكون رجال العصر الحجري القديم قد تمثلوا آلهة من أن يكونوا قد تمثلواالسحر ، مع أنه قد لا يمكن القول أنهم تمثلوا الهة . ويحتمل جداً أن يكون العصر الحجري القديم قد عرف السحر ، ولكننا رأينا أن لا شيء يبرهن عن ذلك ، لا الصور ولا تنظيمها . ولا يكفي أن تظهر اشارة مربعة وكأنها تسجن ظبية ليرى فيها دليل على سحر الصيد ، إذ يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عشرات الاشارات الأخرى المماثلة والتي لا تسجن شيئاً وتملك نفس الثقل في ميزان الأحكام . ولقد رأينا أعلاه ان جروح حيوانات الكهوف لا تصمد كدليل على تعاويذ سحرية أمام أي فحص مهما كان ضئيلاً . كما سيمكن ، بنفس الطريقة ، التأكيد على أن المصلوبين الذين لا يمكن إحصاؤهم عند المسيحيين يدل على عادتهم المؤسفة

بـأن يسحروا أعـداءهم بتعليق رسمٍ لانسـان مجـروح حتى المـوت . وإذا أخذت الوثائق من وجهة واحدة وخارج مضمونها فإننا نخاطر بأغرب سوء فهم . ورأينا أيضاً على ما يعتمد عليه سحر الخصوبة ، وهو تجريد بمزاوجة خلقت من كل القطع انطلاقاً من صورتين مبهمتين أو ثلاث صور مبهمة أو انطلاقاً من صور أسيء تأويلها شأن احصنة موتيه Mouthiers في شارونت Charente ، ولا يبقى إلّا حيـوانات ذات بـطن كبير أغلبهـا ذكور بشكـل واضح .

واستخـدمت الطوطميـة كتفسير في أعمـال عديـدة . وإذا قصد بـذلك بعض التواصل بين العالم الحيواني وعالم الانسان ، فإنه لا يبرهن عن شيء كبير ، ولكن قصد في الغالب حيوانات « طوطمية » لقبائل أو عشائر ، وهذا مالا يؤكده أي شيء مادي . ولا يرد التنظيم الطوبوغرافي للرموز الحيوانية ، والذي يتشابه في كل أوروبا ويقتصر على عدد محدود من الأنـواع ، لا يرد بشكـل جيد عـلى هـذه الفكـرة ، إلا إذا اعتبـر أن كـل مجتمعـات العصر الحجـري القـديم ، والمقسمـة بنفس الـطريقـة ، كـانت تتضمن عشيـرة بيسـون ، وعشيرة حصـان وعشيـرة وعـل ، ولا يعتبـر تـأويـل كهـذا من المستحيل ، ولكن الوقائع نفسها لا تتضمنه بالضرورة .

وبالنسبة للشمانية ، قد تكون هنـاك أسباب تـدعو الى التفكـير بوجـود شـافين يستعيـدون أرواح المـرضى بمسـاعـدة الأرواح التي تحميهم وتعمـل كمرشدة في عالم الأموات ، ومع ذلك حتى لو كنا مقتنعين بهذه الفكرة فإننا لا ندري بأية وثيقة علينا أن نبدأ البرهان . وما ظُن انه وُجِد هو مختصر جداً ويعتمـد على تشـابه غـامض بين « السحـرة ذوي القرون » وثيـاب شمان سيبيريا ؛ ولو كان الأمر « أغرب » من ذلك لقيل ان رجال العصر الحجري القديم كانوا يجلّون الشيطان . ولقد أيدت فرضية الشمانية أيضاً بالاعتماد

على واقعة أنه بقرب إنسان بئر لاسكو Lascaux ثمة صورة يمكن أن تُفسر على أنها وتد يعلوه عصفور . لأنه سُجل ان بعض هنود شمال ـ غرب أمريكا كانوا يضعون أحياناً فوق قبر الشماني صورة لعصفور ، يصير انسان لاسكو إذن شمانياً . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد خدمت الصورة نفسها كاتباً آخر ليقدمها على أنها تمثل لطوطم. أما بالنسبة لنا ، فالشيء الوحيد الأكيد ، هو ان هذا العصفور ينتمي الى المجموعة الطوبوغرافية C-D وانه يعادل رمزياً الانسان أو وحيد ـ القرن ، وهما بالتحديد جاراه على الجدار .

ويمكن العثور على أعذار كثيرة لأولئك الذين حاولوا ، في بداية هذا القرن وفي نهاية القرن الماضي ، تنظيم المادة الهائلة التي كشفها ما قبل التاريخ فجأة . فلقد أدركوا وبكثير من الحس السليم ان رجال العصر الحجري القديم الاعلى كانوا يفكرون ويعملون بطريق قريبة لنا ، ولم يجدوا للبرهان على رؤيتهم من سبيل آخر ، إلا أن يختاروا في العالم الحي والأقرب ما يكون إلى العصر الحجري القديم ، العناصر الضرورية لتوضيح رؤيتهم الصحيحة . وأغرب ما في الأمر ، أنه منذ خمسين سنة ، لم تتم مراجعة هذا التراث العلمي الذي ولد في عجلة البرهنة ، اللهم إلا ليتم تبديل قطعة هندية بقطعة اينوسية aïnoue حُكم بأنها أفضل .

انه لمن الأكيد ، مع انه لا يمكن البرهان عليه ، انه كان لإنسان الكهوف ممارسات معقدة قد تكون شبيهة بما لا يزال قائماً عند آخر بدائيي العالم الحالي . ويمكن التأكيد معنوياً انه لم يكن يرسم فكوك الماموث ليمضي بسرور سهرات الشتاء الطويلة ، ولم يضع عيوناً مستعارة على جمجمة فتاة حسناء ليخيف بها ضيوف مغارته . حتى انه يمكن الافتراض بدون أية مبالغة أن جدران الصالات المزينة البكماء قد شاهدت مشاهد تعزيم وسحر رائعة جداً ، حتى انه يمكن أن تكون قد رأت تضحيات بشرية وأكل لحم

بشر طقسي أو علاقات تقديسية . وكل ما يمكن تصوره انسانياً في نسق هذه الأفكار يمكن أن يكون واقعاً ،ولكن لا يمكن للوثائق أن تبرهن عنه الا إذا صُرِفت بشدة .

لقد وصل الينا دين العصر الحجري القديم بقمّته التصويرية ، وإذ فُكر بذلك فإن الأمر لا يختلف عن بقية محاريب كافة الاديان الأخرى . ويعثر فيها على صورة لنسق الكون مرموزاً اليه بأشخاص آدمية أو حيوانية . والمعابد هي عالم مصغر وبانتيونات في آن معاً . ولا تختلف طبيعة ما يُعرف عن السيبيريين أو الاسكيمو أو الاوستراليين أو باقي الصيادين الحديثين عن ذلك ، وما عدا المعابد فإن الصور المنحوتة أو المرسومة ومجموعات التماثيل الصغيرة والرقصات ترجع الى امتلاك صورة ضرورية عن العالم . ولا يمكن للانسان أن يفهم ويسيطر إلا من خلال رموز الابداع . وإذ تم وضع هذا الإطار في مكانه ، وفي مستواه ، يمكنه أن يؤثر على الاحداث المستقبلية . ومن العصر الحجري القديم ، لم يصل الينا الا الديكور ، وبقيت اثار الافعال نادرة وغير مفهومة في الغالب . بشكل انه لن يكون أمامنا الا أن ندرس خشبة فارغة ، كأنما يُطلب منا أن نعيد صياغة المسرحية من دون رؤيتها ، انطلاقاً من لوحات رسم عليها قصر وبحيرة مع خلفية غابة .

نعرف بيقين معقول أن الديكور ، الجداري والاثاثي ، يشتمل على الكثير من الصور الذكورية والانثوية (مصورة بطريقة واقعية أو من خلال الاشارات) وضعت في مركز الجهاز ، ولا تحصى الأديان التي تستعمل الصور الذكورية والانثوية كعنصر مركزي ، ويبقى مجال اختيار التفسيرات غير محدود . ويضاف الى هذه زوج احصائي مكون من البياسين والأحصنة أو ، غالباً ، من زوج بياسين وزوج أحصنة يظهر أنهما يمثلان مجموعتين متكاملتين . وغالباً ما يتدخل حيوان ثالث ، ماموث أو أيل أو وعل .

ويمكننا من دون مشقة أن نعثر على ترسيمات اسطورية تدخل فيها شخصيات أو تركيبات ثنائية في علاقة مع ثالث يُصور هو أيضاً في الغالب بزوج . وتتملص الصلة الديناميكية بين الابطال الثلاثة ، ولا تؤكد الصيغة (A-B+C) ، والتي تتكرر مئات المرات ، الا على وجود سيستام للتمثلات منسق بقوة .

والاشارات α وβ والأشخاص الذكورية والأنثوية التي تنوب عنها هي على علاقة مع الحيوانات أو مع الكهف لأننا نجدها متزاوجة ، شأن الحيوانات ، في مواقع I أو IIc . إضافة الى ذلك ، غالباً ما تكمل الاشارات α عوارض طبيعية (شقوق أو تجاويف ذات محيط بيضاوي) يمكن تشبيهها بالخواص الانثوية .

ومن ناحية أخرى ، يفتح التوازي بين اشارة الانثوية ـ الجرح شبكة من الصلات المهمة جداً . ان يستطيع بيسون أن يحمل على جنبه فرجاً أو جرحاً على السواء ، يفتح الطريق ، بطريقة غير واضحة ولكنها محسوسة ، نحو ميتافيزياء حقيقية للموت . ومن الصعب أن نذهب الى أبعد من ذلك ، في هذه اللحظة على الأقل ، لأنه لا يمكن أن نفهم ، وبغموض ، سوى جزء من الجوانب الرمزية لسيستام التمثلات : التماثل بين الاشارات وزوج البيسون ـ الحصان والصلة المحتملة بين الرموز الجنسية والرموز المتعلقة بالصيد الرمح ـ الجرح . وبالعكس يبرز تقييم الكهف نفسه كرمز أنثوي بوضوح من خلال الحالات المتعددة التي يشدد فيها على الأشكال الطبيعية (مشكات رسمت بالأحمر) أو التي كُملت بإشارات α . وفي عدة حالات ، تظهر (في بيك ـ مرل أولاس مونيداس مثلاً) « إشارة ثالثة γ » يمكن لها أن تماثل الحيوان الثالث .

إننا لا يمكن أن ندرك دين ما قبل التاريخ الا بشكل ضئيل جداً . الشيء الوحيد ، غير المبدأ العام في التكامل بين الصور ذات الجنسية المغايرة ، الذي يمكن تقديمه هو أن التمثلات تغطي سيستاماً معقداً وغنياً جداً ، أغنى وأعقد بكثير مما أمكن تخيله حتى الآن . ويشهد الاستقرار الفائق للجهاز الرمزي على وجود أسطورة شُكلت باكراً جداً ، لأن العصر الاورينايسي Aurignacien شهد مزاوجة الحيوانات والاشارات . ولا تزال العناصر تنقصنا لنرسم غنى الجهاز الاسطوري التدريجي وتغيراته المنطقية ، ولكننا نعرف أنه بلغ أوجه بين نهاية السولتري Solutréen والمجدلي المتوسط ، أي بين 15000 و12000 . وتشهد مجموعات متجانسة بشكل رائع ، شأن لوغابيللو Le Gabillou ، ولاسكو Lascaux ، وبيك ـ مرل Pech Merle- ، ونيو Niaux ومونتسبان Montespan ، وتروا ـ فرير Trois-Frères ، تشهد بأنه في تلك المرحلة ، بين اللوار والبيرينيه ، لم تصر فقط المجموعة المركزية كثيفة جداً مع تراكيبها من أزواج الحيوانات المتزاوجة بأنواع مختلفة ، ولكن تخلق صور الرجال المركبة والسنوريات ووحيد ـ القرن والحيوانات بدون رأس ، والتي تتكاثر في الأعماق ، تخلق خلفية كثيفة من الرموز المتعلقة بأكثر ما في اللغز من حميمية .

إن هذا التجمع غير العادي والموضوع على الجدران ، صمت منذ ان اختفى آخر مجدلي . وربما كان ما يحتويه مضمون دين العصر الحجري القديم الشفهي والعملاني أكثر تنويعاً مما تم فهمه من خلال الصور ، ولنفكر بموضوع الاوراسي eurasiatique للنسر والأسد والثور ، الذي غطى في بلاد ما بين النهرين Mésopotamie وفي سيتي Scythie ومصر والصين والهند ، أساطير مختلفة وهو بالنسبة لنا أيضاً رمز للانجيليين . فما

تم توضيحه هو هيكل ؛ ولن يتوانى البعض عن تلبيس هذا الشبح ، ولكني من ناحيتي ، أخشى أن نخون إنسان الكهوف ، إذا زدنا على الشواهد التي تركها .

فهرست

الموضوع ..... الصفحة

المقدمة 5

طبيعة المصادر 10

الفصل الأول : عبادة عظام الموتى 13

مستودع عظام متصلة تشريحياً 15

مستودعات العظام كوماً أو في تجاويف 17

دوائر عظام الأموات 23

عظام مندرجة في كتل أو في ركام 24

عظام مزخرفة 25

التذكارات 27

عبادة الدب 30

الفصل الثاني : الممارسات الجنائزية 37

عبادة الفكوك السفلى 37

الجماجم المنعزلة 40

أفكار حول عبادة الجماجم والفكوك 45

اكل لحوم البشر 48

التجريد من اللحم 51

اللحد 52

اشكال اللحود الباليونتروبية 56
لحود العصر الحجري القديم الأعلى 58
تقييم مؤقت حول عبادة عظام الموتى والممارسات الجنائزية 61
الفصل الثالث : أشياء وطقوس 63
الاصباغ 64
المتحجرات والصدف 66
الطقوس 71
الفصل الرابع : الفن الديني 75
توزع فن العصر الحجري القديم 79
تسلسل الأساليب الزمني 81
المرحلة القديمة 84
مواضيع الفن الجدراني والفن الاثاثي 87
الاشارات 89
الصور الجدرانية 92
التحليل الموضوعي للمحراب 101
التزاوج 101
الحيوانات السائدة 104
الـ « الحيوان الثالث » 106
الموضوعات النادرة 107
فن الاثاث 112
الصفائح 113
التماثيل الصغيرة 117
مواد ذات طابع استعمال عرضي 121
العصي المثقوبة 122

al-maktabeh
مكتبة المهتدين
http://al-maktabeh.com

مواد التعليق 129
الطقوس 134
الفصل الخامس : الدين في العصر الحجري القديم 139
العصر الحجري القديم الأعلى 140

1990 / 6 / 348